الحرب بين قورينة وقرطاجة:

نتيجة للازدهار الذي أصابته قورينة في المجالات المختلفة فإنها أصبحت، إلى جانب كونها مركز إشعاع ثقافي، مركزاً للقوة ا لإغريقية على ساحل برقة. وكان يقابلها بعيداً إلى الغرب على الساحل التونسي مركز ثقافة وقوة فينيقي هو قرطاجة. وبالرغم من أن قرطاجة كانت أعظم شأناً وقوة من قورينة إلا أنه كان لابد أن تتعارض مصلحتها باعتبار أن كلاً منهما كانت تنتمي إلى قارة مغايرة لقارة الأخرى فهما وإن قامتا على ساحل الشمال الإفريقي إلا أن قرطاجة كانت آسيوية بينما كانت قورينة أوروبية. وإذن فنحن لا نبالغ إن رأينا في اصطدامهما حلقة صغيرة في سلسلة التصادم بين أوروبا وآسيا. وبالإضافة لذلك كله فإن التنافس بين الفينيقيين القرطاجيين والمستوطنين الإغريق في جزر البحر الأبيض المتوسط كان لابد أن يؤدي إلى الاصطدام بين أولئك الإغريق والقرطاجيين وبالتالي بين القرطاجيين والقورينيين. ولم يطل الوقت بالمدينتين حتى تنازعتا على تعيين الحدود بينهما في منطقة طرابلس في أعقاب قصة الأخوين فيليني التي سنفصل القول فيها في موضع آخر. وفي هذه المرة توصلنا إلى اتفاقية على الحدود فيما بينهما إلا أن تلك الاتفاقية حسمت النزاع مؤقتاً ولم تحسم العداء الذي ظل قائماً في مكامنه في انتظار ظروف مناسبة تسمح له بالتعبير عن ذاته.

وجاءت الفرصة المنشودة في عهد بطليموس الأول، خليفة الاسكندر الكبير، عندما استجاب أوفلاّس (Ophellas) حاكم قورينة الذي كان قد استقل بها، لدعوة تلقاها من أجاثوكليس (Agathocles) ملك سيراقوسة الإغريقي، الذي كان قد فاجأ قرطاجة ونزل بقواته على البر التونسي، يحثه فيها على مشاركته في مهاجمة قرطاجة ويؤكد له أنه سيؤيده، في حالة الانتصار على قرطاجة، في أن تكون له، أي لأوفلاّس، اليد المطلقة في برقة. وصادفت هذه الدعوة هوًى وطموحاً في نفس أوفلاّس فسار سنة 308 ق.م. بجيش يشبه مستوطنة متحركة برجالها ونسائها وأطفالها، وانضم إليه عدد كبير من أعوانه الليبيين، وتجشم الجميع مشقة السير المضني حول خليج

سرت الكبير في منتصف الصيف القاسي. ولا يعرف ما فعله هذا الجيش بالمستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس وإن كنا نظن أنها فتحت أبوابها أمام القادمين تجنباً للصراع وإراقة الدماء. والمعروف، على أي حال، أن عدداً قليلاً جداً من رجال أوفلاّس تمكنوا من العودة سالمين من تلك الحملة، أما هو نفسه فقد لقي مصرعه على يد حليفه في تونس إثر خلاف نشب بينهما مما أتاح الفرصة لقرطاجة فأجهزت على البقية الباقية من القوات المتحالفة؛ وانتهى بذلك التحدي الإغريقي الرئيسي لقرطاجة ولسلطانها في شمال إفريقيا، ذلك التحدي الذي ورثته روما بعد نصف قرن من الزمن كجزء من التركة الإغريقية فسارت به حتى نهاية الشوط ونهاية قرطاجة في موجة عدوان جديد لأوروبا على إفريقيا وآسيا ممثلتين في قرطاجة. وبمقتل أوفلاّس خضعت برقة للبطالمة من جديد. ولما كان البطالمة ورثاء الاسكندر وخليفته أو نائبه أنتيباتر فإنهم لم يرثوا عنهما جزءاً من الإمبراطورية فقط بل ورثوا أيضاً نظام الحكم والنظام العسكري ونظماً أُخرى وعادات وتقاليد تشكل في مجموعها طريقة حياة كاملة. ولتوضيح هذه النقطة نقول إن الإسكندر الكبير كان يعامل المدن الإغريقية أينما وجدت كحليفة حرة، ولكن خليفته أنتيباتر رغب في معاملتها كرعايا وكدول مغلوبة تابعة له يضع الحاميات فيما يشاء منها ونصّب في دست الحكم بها أوليجركيات (أقليات) تناصره، أو طغاة يمالئونه. وقد حذا البطالمة حذو أنتيباتر في هذه السياسة فصاروا يعينون حكاماً أو مندوبين للملك في المدن التابعة لهم، وفي بعض الأحيان كان الملك البطلمي يتولى بنفسه تعيين واحد أو أكثر من الحكام الرئيسيين الأول كما فعل بطليموس الأول بالنسبة لمنطقة برقة عندما عين ماجاس حاكماً لها كما أسلفنا[38]، وكما فعل بطليموس الثاني فيلادلفوس – وكان ماجاس المذكور إبناً لزوجة أبيه برنيتشي – عندما أقر ماجاس المذكور في منصبه حاكماً لقورينة[39] نيابة عن الملك.

38- تارن، وليم، الحضارة الهلينستية، الطبعة الثالثة، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966، ص 73 – 75.

39- نصحي، إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء)، القاهرة، 1966، ج 2، ص 334، حيث يقول: «إن المشكلة الرئيسية التي واجهت البطالمة في قوريناينة قد واجهتهم كذلك في كل ممتلكاتهم التي كانت المدن الإغريقية

وفي مناسبة التعيين الأولى باشر ماجاس سلطات منصبه كحاكم لقورينة ابتداءً من سنة 300 ق.م. وبعد سنة 283 ق.م. (أي بعد وفاة بطليموس الأول) انتحل ماجاس لنفسه لقب ملك. ذلك اللقب الذي كان قد سقط من الاستعمال في قورينة منذ انتهاء أُسرة باتوس. ولم يكتف ماجاس بكل ذلك بل أعلن استقلاله ببرقة وزحف على مصر سنة 274 ق.م. وأشرف على الاسكندرية ولكن الملكة آرسينوي، زوجة بطليموس الثاني فيلادلفوس الذي أصبح ملكاً لمصر، نجحت بدهائها في إثارة قبائل المارماريدي الليبية ضده ووراء ظهره في مارماريكا مما جعل حملته تبوء بالفشل ودفعه إلى التوصل لاتفاق مع بطليموس فيلادلفوس وذلك بعقد قران ابن بطليموس فيلادلفوس وخليفته على برنتشي ابنة ماجاس. وتخليداً لهذه المناسبة قام البطالمة بتغيير أسماء مدن برقة وسموها بأسماء ملكية كما سنبينه فيما بعد. وسقط اللقب الملكي من جديد وعاشت برقة طيلة المائة سنة التالية تحت حكم مصري لم تحدد معالمه[40].

وإذا نحن ألقينا نظرة على دستور المدينة الإغريقية المتمتعة بالحكم الذاتي من مثل المدن الإغريقية على ساحل برقة، فإننا سنلاحظ لأول وهلة أن ذلك الدستور يبدو وكأنه ظل على صورته الأولى دون أن تمسه يد التغيير[41]؛ فقد كان بكل مدينة جمعية تضم شمل أحرارها كما كان لها مجلسها

تقوم بالدور الرئيسي في حياتها. وإذا استبحنا لأنفسنا أن نستند إلى الوثائق القليلة التي لدينا في الحكم على موقف البطالمة من رعاياهم الإغريق بوجه عام، فإننا نرى البطالمة لم يعبأوا كثيراً باستقلال المدن الخاضعة لهم لأن سيطرتهم على هذه المدن تبدو بجلاء في وثائقها الرسمية، فديباجة هذه الوثائق لا تستهل عادة باسم المدينة وشعبها ومجلسها وحكامها بل باسم الملك».

40- Wood, Roger & Wheeler, Mortimer, Roman Africa in Colour, Thames & Hudson, London, 1966, p. 16.

41- حافظ البطالمة على جوهر دستور منطقة برقة واكتفوا بإدخال بعض التعديلات التي كانت تكفل لهم خضوع المنطقة فاحتفظوا لأنفسهم بالامتيازات التالية: 1) الحق في أن يدمجوا في القبائل بعض المواطنين الجدد الذين ربما كانوا من أرباب الإقطاعيات العسكريين في الجيش البطلمي، 2) الحق في أن يعيدوا إلى المنفيين من أنصارهم بعض حقوقهم، 3) الحق في اختيار أعضاء مجلس الشيوخ، 4) الحق في تولي منصب الحاكم العسكري «Strategos»، 5) التدخل في قضايا المنفيين، 6) الحق في منح حقوق المواطنة. انظر أيضاً: نصحي، إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966، ثلاثة أجزاء، الجزء الثاني، ص 333.

وحكامها وسلطاتها التشريعية، وماليتها غير المستقرة، وخلافاتها الداخلية... حتى إذا حل الربع الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد كانت الأوليجركية والديموقراطية كنظريتين سياسيتين قد لفظتا آخر أنفاسهما وأخذ الأساس الذي يقوم عليه تكتل الناس يتجه اتجاهات جديدة كالتشيع للبطالمة، أو للأحزاب الوطنية والروح القومية، أو للانضواء لطبقة الأغنياء أو الفقراء، وربما صارت السلطة تنتقل إلى مجلس الشورى أو يتولاها الحكام بعد أن يندمجوا في لجنة واحدة.

على ضوء ما تقدم يمكننا القول إن المدن الإغريقية الواقعة في ممتلكات البطالمة الأجنبية – أي خارج مصر – ومنها مدن برقة كانت خاضعة لهم خضوعاً لا شك فيه؛ وكانت الضرائب تفرض عليها على أساس تلك الصفة، كما ان شكل نظام الحكم كان مرتبطاً بأنموذجه المصري بحيث تخضع المدن في الممتلكات الخارجية لقواد إغريق أو مقدونيين مع جعل الرئاسة في المدن بيد حكام مدنيين، وربط الشؤون المالية بالديوكيتس (Dioiketes) أي وزير المالية البطلمي الذي كان مقره في الاسكندرية بمصر.

وقد تجلت نظرة البطالمة بصدد اعتبارهم لبرقة ملكاً شخصياً لهم فيما أدخلوه من تغيير على أسماء مدنها الإغريقية وما سموها به من أسماء ملكية:

1- فقد غيروا اسم توكرة وسموها آرسينوي (Arsinoe) باسم زوجة بطليموس الثاني فيبلدلفوس.

2-وغيروا اسم طلميثة الحالية وأسموها بطليموسة (Ptolemisa) لاباسم بطليموس الثاني فيلادلفوس.

3- وغيروا اسم يوسبيريدس وسموها برنتشي (برنيقة) باسم ابنة ماجاس زوجة بطليموس الثالث.

ومع كل ذلك فإن برقة ظلت دون شك تحتل مكانة خاصة بين ممتلكات البطالمة خارج مصر؛ فقد كانت عبارة عن ملحق لمصر يندب لحكمها أحد أعضاء الأسؤة البطلمية، ومن الوجهة الإقتصادية كانت برقة ذات أهمية

بالغة لأنها منطقة زراعية شـديدة الخصوبة إلى حـد أنها كانت تعتبر أحد أهـراء العالم القديم. أضف إلى ذلك أنهـا كانت موطن نوع من أفضل الخيول التـي كانت البطالمة في أمسّ الحاجة إليها. كمـا ان قورينة كانت منذ تاريخ تأسيسهاا مركزاً مهماً للتجارة الخارجية. ونحن وإن كنا لا نعرف غير القليل عن التنظيم الاقتصادي في قورينة وبرقة إلا إنه مما يلفت النظر ذلك الشـبه القـوي في التركيب الاجتماعـي بين قورينة وبرقة مـن ناحية – كما وصفه اسـترابوا – وبين الاسكندرية ومصر من الناحية الأخرى. فقد كان في قورينة عدد كبير من السـكان غير الإغريق. وكان معظمهـم من اليهود. إلى جانب مواطنين يتمتعـون بحقوق المواطنة الكاملة وآخرين يتمتعون ببعض حقوق المواطنـة فقط. وآخرين من الغرباء الذين لم تكـن لهم حقوق مواطنة على الإطـلاق. وربما كان بعض هؤلاء الأخيرين من السـكان الليبيين الأصليين. أما سكان الريف فقد كانوا عبارة عن مزارعين يستغلون أراضي تابعة إما لقورينة وإما للملك. وربما كانت هذه الطبقة من المزارعين تشمل بين صفوفها الجنود المتقاعدين المستوطنين.

وإذا مـا تذكرنـا أن مـن أهم منجـزات العصـر البطلمي فـي مصر في مجال الزراعة إدخال عصر الحديد إلى البلاد على نطاق واسـع يسـمح للناس باسـتعمال الأدوات الحديدية استعمالاً شاملاً في حياتهم اليومية. فإنا لابد أن نستنتج من ذلك أن البطالمة شجعوا انتشار الأدوات الحديدية الزراعية في برقة كذلك[42].

أمـا القبائل الليبية في هـذا العصر فإن سـكايلاكس (Skylax) الذي تناول هذا الموضوع حوالي سـنة 320 ق.م.. أي مـع بدء العصر البطلمي في برقة. يخبرنا أنها كانت موزعة على النحو التالي:

42- كان الحديـد نادر الاسـتعمال في مصر الفرعونيـة وكان البطالمة أول من أمد مصر على نطاق واسع بالادوات الحديدية التي كان معظمها مستورداً. أنظر أيضاً:
Rosotvtzeff, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford, Clarendon Press, 1st edition 1941, reprinted 1954, Three Vols., Vol. I, P. 362.

1- الأدرماخيـدي: وكانـت ديارهم تمتد فيما يلي مصـر غرباً حتى مدينة أبيس (زاوية الرخم إلى الشرق من السلوم).

2- المارماريدي: وكانوا يعيشـون إلى الغرب من الأدرماخيدي وينتشـرون في داخل برقة حتى مشارف خليج سرت الكبير.

3- الناسـامونيون: وكانوا يسـتوطنون المنطقة إلى الشـرق من خليج سـرت الكبير في الجنـوب الغربي من برقة وينتشـرون حتـى نصب الأخوين فيليني حيث يقوم الآن القوس الرخامي التذكاري.

4- المـكاي: وكانت ديارهم تقع بين ديار الناسـامونيين في الشـرق ونهر كينبس في الغرب.

5- اللوتوفاجيون أو أكلة اللوتس: وكانوا ينتشرون في المنطقة. من نهر كينبس إلى جيثس (Giethis) مقابل جزيرة جربة بتونس.

أمـا علاقـة الليبيين بالإغريق في هذا العصر فقـد كانت علاقة عداء مع المـدن الإغريقية في برقة وكانت تتمثل في سلسـلة الغـارات التي ظلت القبائـل الليبية تشـنها على تلك المـدن بين الحين والآخر. ليـس في العصر البطلمـي وحده بـل أيضاً في العصـور التالية حتى الفتح الإسـلامي. وقد أكتشـف فـي قورينة نقش مؤرخ بالقـرن الثالث قبل الميلاد سـجل عليه أن خمسـة من قواد تلك المدينة أهدوا أبولو عشـر الغنائم التي استولوا عليها في أعقاب انتصارهم على قبيلتي المكاي والناسـامونيين. كما انهم شـيدوا السـتراتيجسـوم في قورينة تخليـداً لذلك الانتصار. ولكـن علاقة الليبيين بالبطالـمة كانت تتسـم بالتبعية والخضـوع رغم اسـتمرارهم في تصريف شؤونهم الذاتية بأنفسـهم. فنحن نسمع عن وجود ثلاثة آلاف مقاتل ليبي في جيش بطليموس الرابع فيلوباتر. ونسـمع عن إسـهامهم إسهاماً فعالاً فـي ترجيح الطفـة لصالح بطليموس الرابع في معركـة رفح التي خاضها سـنة 217 ق.م. ضد قوات أنطيوخس الثالث ملك سوريا السلوقي. وبالرغم مـن ضآلة ما نعرفه عن النظم الإداريـة والاقتصادية لبرقة في ظل البطالمة فإننا نسـتطيع أن نتصور. بالقياس على ما كان جارياً في مصر. وجود طبقة

من الليبيين العاملين في المزارع والمراعي والاحتكارات الملكية الأخرى. إلى جانب الليبيين المشتغلين بالزراعة والرعي والتجارة في ريف برقة وباديتها وفي ظل النظام الليبي القبلي المتين[43].

يتضح لنا مما تقدم أن القبائل الليبية في برقة ظلت مخلصة لنظامها القبلي الذي كان ينظم لها طريقة حياتها، وأنها كانت على علاقة متأرجحة بالمدن الإغريقية في برقة؛ تتحسن حيناً فيسود التعاون والتبادل التجاري، وتسوء أحياناً فيسود العداء والقتال والغارات. كما ان علاقتها بالبطالمة اتسمت بالتبعية الإسمية من ناحية وبالاستقلال الفعلي بشؤونها الداخلية من ناحية أُخرى. أما المدن الإغريقية في برقة فقد لاحظنا أنها جميعاً، وعلى الخصوص قورينة، كانت تخضع لنظام حكم ملكي مطلق حتى انقراض أُسرة باتوس سنة 440 ق.م. وتلت هذا التاريخ فترة صراع عنيف بين الأوليجيركية الأرستوقراطية والقوى الديموقراطية في مدينة قورينة؛ فقد روى كل من ديودورس الصقلي وأرسطو أن ثورة ديموقراطية انفجرت في قورينة حوالي سنة 401 ق.م. قتل فيها أكثر من خمسمائة من الأغنياء وفرّ الكثيرون منهم طلباً للنجاة. وقد ذكر أرسطو أن السبب الرئيسي في قيام تلك الثورة هو نقمة الطبقات الفقيرة على الحكومة الأوليجركية المستبدة بها. وفي أعقاب هذه الثورة آلت السلطة للحزب الديموقراطي في قورينة فبدأ بإعداد برنامج إصلاح شامل يستند إلى الأسس الديموقراطي في قورينة فبدأ بإعداد برنامج إصلاح شامل يستند إلى الأسس الديموقراطية التي كان كليسثينس (Cleisthenes) قد سنها في إصلاحه للأوضاع في مدينة لإثينا. أما ديودورس فقد ذكر أن الأوليجركيين لم يستسلموا للهزيمة بل أعادوا الكرة في محاولة لاسترداد السلطة فتمكنوا في بداية الأمر من إقصاء الديموقراطيين عن مراكز السلطة في قورينة حوالي الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد ولكن الديموقراطيين كروا عليهم من جديد فهرب فريق من هؤلاء إلى مصر واستغاثوا بحاكمها بطليموس ابن

43- انظر أيضاً: عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966، ص 77.

لاجوس فاستغل هذا فرصة النزاع بين الحزبين وتدخل عسكرياً فاحتل قورينة سنة 322 ق.م. وبسط نفوذه على منطقة برقة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه تم العثور على لوح رخامي محفوظ في متحف شحاتت نقش عليه دستور لقورينة يعتقد أنه وضع لبطليموس الأول في السنة التالية لاستيلائه على قورينة. ويتكون هذا الدستور من خمس عشرة مادة وتغلب عليه النزعة الأوليجركية فهو لا يسنح للمدينة بالعودة إلى رحاب الديموقراطية خاصة وأن بطليموس إنما تدخل لصالح فريق من الأوليجركيين الهاربين ولكنه في الوقت ذاته لم يطلق يد هؤلاء الأوليجركيين ليعودوا أسياداً محتكرين كما كانوا قبل خروجهم[44].

وفي سنة 313 ق.م. ثارت قورينة على الحكم البطلمي ولكن بطليموس أرسل إليها حملة ساعدت أوفلاس على إخماد تلك الثورة وأعادته إلى كرسي الحكم في المنطقة. وفي سنة 311 ق.م. حفزت أوفلاس مطامعه الشخصية وما لقيه من تشجيع أنتيجونس على الاستقلال بمنطقة برقة. ولم يكتف بذلك بل تحالف مع أجاثوكليس، ملك سيراقوسة في حملة ضد قرطاجة وانتهت تلك الحملة بمصرعه على يد حليفه سنة 308 ق.م.[45] واغتنم بطليموس الأول هذه الفرصة وكلف ماجاس، ابن زوجته برنتشي، باستعادة منطقة برقة فنجحجح في ذلك وكافأه بطليموس الأول بتعيينه سنة 300 ق.م. نائباً عنه في حكمها. وقبل ذلك بقليل نسمع عن قيام بطليموس الأول بغزوة مجددة لمنطقة برقة سنة 301 ق.م. مما يرجح قيام ثورة في قورينة قبيل ذلك التاريخ. ولكن بطليموس الأول لم يلبث بعد القضاء على تلك الثورة إلا قليلاً ثم توفي سنة 282 ق.م. فنتهز ماجاس فرصة موته واستقل بمنطقة برقة وأعلن نفسه ملكاً عليها. وقد حفزه موقفه هذا إلى التقرب من ملوك سوريا السلوقيين فتحالف معهم ضد البطالمة وتزوج من أباما ابنة أنطيوخس الأول تعزيزاً لعرى الصداقة بينه وبينهم. وقبل وفاته بقليل مال إلى الاعتدال فاتبع سياسة الموادعة تجاه

44- راجع بشأن هذا الدستور المرجع السابق ص 138-151.
45- انظر ص 272 أعلاه.

بطليموس الثاني فيلادلفوس، ملك مصر، فعقد خطوبة ابنته برنتشي على ابن بطليموس الثاني وولي عهده. ولكن بعد وفاة ماجاس سنة 258 ق.م. تبنت أرملته أباما سياسته مغايرة لسياسته ومناوئة للبطالمة فاختارت الأمير ديمتريوس الجميل، أحد أمراء البيت المالك في مقدونيا، زوجاً لابنتها بدلاً من ولي عهد مصر البطلمي؛ وذلك لكي تبقى بعيدة عن البطالمة ومستقلة بمنطقة برقة. وقدم ديمتريوس إلى قورينة حيث وقع في غرام أباما نفسها مما دفع الأميرة برنتشي إلى تدبير مؤامرة له أدت إلى مصرعه. وتمكنت برنتشي من السيطرة على الموقف في منطقة برقة حوالي سنة 255 ق.م. ونفذت خطتها فتزوجت من ولي عهد البطالمة في مصر الذي أصبح الآن بطليموس الثالث، ملك مصر، مما أدى إلى تقارب جديد بين برقة ومصر لم يلبث أن انتهى بعد قليل بتبعية الأولى للثانية[46].

وتعتبر الفترة التي تلت وفاة ماجاس سنة 258 ق.م. فترة غامضة في تاريخ برقة ولعلها هي الفترة التي نشأ فيها اتحاد البنطابولس أو المدن الخمس، وقد كان اتحاداً فدرالياً لم يلبث أن شمل جميع مدن برقة وفقاً لدستور وضعه له الفيلسوفان أكديموس وديموفانيس سنة 250 ق.م.[47]

46- انظر أيضاً: إيمار، أندريه، تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر ورفيقه، ثلاثة مجلدات، المجلد الثالث، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1964، ص303-324.

47- لم يصل إلينا دستور هذا الاتحاد، ولعلنا لا نخطيء إذا افترضنا أنه كان على نمط دساتير الاتحادات الإغريقية التي جربتها بلاد اليونان في الفترة ما بين وفاة الإسكندر الكبير وظهور روما؛ وكان أهمها:

أ- الاتحاد الإيتولي (322 – 265 ق.م.): وكان على رئاسه قائد «Strategos» ينتخب كل عام وكانت السيادة فيه للجمعية الشعبية التي كانت تعقد مرة كل خريف أو عند الطلب كلما دعت الحاجة وكانت تفصل في المسائل الهامة كإعلان الحرب وإقرار السلم وعقد المعاهدات، وفي وقت الحرب كان الجيش الإيتولي يقوم مقام هذه الجمعية التي كان لكل إيتولي الحق في الاشتراك فيها، وإن كان من الطبيعي أن يقتصر الاشتراك فيها على الأثرياء حتى لا تتعرض الجمعية لاحتمال تسلط الغوغاء عليها. ومن المرجح أن التصويت لم يكن مقصوراً على الحاضرين من أعضائها بل كانلكل مدينة نسبة معينة من الأصوات تتناسب مع أهميتها. وكانن للحلف مجلس اسمه السنهدريون «Synhedrion» يتكون من حوالي ألف مندوب يمثلون المدن المختلفة، وكان هذا المجلس يجتمع أكثر من اجتماعات الجمعية الشعبية ويفصل في مسائل أقل أهمية من المسائل التي تفصل فيها تلك الجمعية. وكانت له لجنة يسمى أعضاؤها أبوكليتوي «Apokletoy» ويساعدون الستراتيجوس في تصريف أعماله العادية، وكان عددهم أكثر من ثلاثين عضواً. وكان الستراتيجوس في الواقع هو السلطة التنفيذية الرئيسية؛ فقد كان يعبيء القوات أو يسرحها، ويرأس الجمعية الشعبية ويتولى لمفاوضات

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا الاتحاد انتهى سنة 246 ق.م. بينما يذهب البعض الآخر إلى أن الاتحاد استمر قائماً كتنظيم داخلي محلي رغم تبعية برقة للبطالمة. أما المدن الأعضاء في الاتحاد فقد كانت قورينة وبرقة وتوكرة ويوسبيريدس. وقد فصل المشرعان أبولّونيا، ميناء قورينة، عن قورينة ذاتها واعتبراها مدينة مستقلة هي العضو الخامس في الاتحاد. وقد ظل اسم المدن الخمس شائعاً في الاستعمال حتى العصر البيزنطي. أمّا عاصمة الاتحاد فكانت قورينة وفيها كانت تصدر العملة الخاصة به. وبعد هذا الحد لا نجد ما يوضح لنا علاقة برقة بالبطالمة، لكننا نعلم أن البطالمة كانوا أصدقاء للرومان في هذه المرحلة فنحن نقرأ في وصية بطليموس يوريجيتس الثاني مناشدته للرومان باسم جميع الآلهة، وباسم الشرف أن يقدموا كل ما في وسعهم من مساعدة ضد أي معتد على مدن مملكته أو أراضيها. وفقاً لمقتضيات العدالة ومعاهدة الصداقة والتحالف المبرمة بينه وبينهم؛ ولما كانت برقة جزءاً من ممتلكات البطالمة فإنها كانت دون شك تتمتع كغيرها من ممتلكات البطالمة بما كانت تنطوي عليه معاهدة الصداقة والتحالف بين البطالمة والرومان. ولهذا فإنا نجد بطليموس أبيون يوصي بمنطقة برقة إرثاً لروما قبيل وفاته سنة 96 ق.م. كما نلاحظ أن الرومان قبلوا الوصية واكتفى مجلس شيوخهم «السناتو Senato» بوضع يده على الممتلكات الملكية في برقة وترك للمجن حرية التصرف في شؤونها احتراماً لمعاهدة التحالف والصداقة التي كانت قائمة بينهم وبين البطالمة، واحتراماً للاستقلال الذاتي للمدن الإغريقية في برقة وللتقاليد التي كانت سائدة فيها.

وإلى جانب العنصرين: البربري الليبي – وهو العنصر الوطني – والإغريقي – وهو عنصر طارئ مستوطن – كان في برقة عنصر ثالث مهم هو العنصر اليهودي الطارئ. وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسف (Eusebius) أن «بطليموس

مع الدول الأخرى، ولم يكن يحق لأي فرد أن يشغل وظيفة الستراتيجوس هذه سنتين متعاقبتين وإن كان يحق للفرد الواحد أن ينتخب مرة كل سنتين دون قيد. وكان الستراتيجوس يتولى القيادة العليا لقوات الحلف الإيتولي في الميدان. وكان يليه مباشرة رئيس الفرسان «Hipparchos» ثم الوزير «Demosios Grammateus».

بعث بفريق من اليهود إلى مدينة قورينة ليستقروا بها. ذلك لأنه كان مهتماً بتشديد قبضته على هذه المدينة ومدن ليبيا (= برقة) الأخرى». ومعنى هذا أن اليهود بدأوا يتسللون إلى برقة بعد سنة 322 ق.م. بتشجيع من بطليموس حاكم مصر الذي أصبح فيما بعد ملكاً لمصر وتسمى بطليموس الأول. وغاية بطليموس من تشجيع اليهود على الاستقرار في قورينة ثم في بقية برقة واضحة فقد أرادهم مخلب قط له يستخدمهم في تحقيق أغراضه في السيطرة على برقة. وإذن فإن أصل الجالية اليهودية في برقة هم يهود مصر[48]. ويبدو أن الجالية اليهودية في كل من مصر وبرقة قد وجدت قبل عصر البطالمة وازدادت خلاله نظراً لمن كان يجلبهم بطليموس الأول إلى مصر من اليهود الذين يأسرهم في فلسطين في غزواته المتعاقبة لها. ونظراً لهجرة عدد من يهود فلسطين المتدينين الذين هربوا بدينهم لمصر وبرقة خلال المحنة التي تعرضوا لها في فلسطين عندما أراد الملك السلوقي أنطيوخس الرابع (175-164 ق.م.) أن يحملهم على التأغرق.

ولقد أثبتت المكتشفات الأثرية ما ذكره استرابو (Strabo) من أن البطالمة شجعوا اليهود على الانتشار في مدن برقة وقراها. أما المدن التي استقروا بها فهي، بالإضافة إلى قورينة، طلميثة وآرسنوي (= توكرة) وبرنيتشي (= بنغازي). ويلاحظ أن الجالية اليهودية في هذه المدن ظهرت قوية منظمة في أوائل العصر الروماني مما يشير إلى أنها كانت قد استقرت فيها قبل ذلك العصر بأمد كاف أي خلال العصر البطلمي. ولا شك أن البطالمة أقطعوا جندهم المرتزقة الأراضي في ريف برقة، كما كانوا يفعلون في مصر، مما يعني وجود جنود يهود بين أصحاب تلك الإقطاعيات. وإذا جاز لنا أن نقيس سلوك يهود برقة على نمط السلوك اليهودي العام في العصور التاريخية المختلفة فلابد لنا أن نرجح أنهم كونوا في برقة جاليات (Diaspora) أو تجمعات تكاد تكون مغلقة في وجه غير اليهود، وتتغلغل في الوقت ذاته في كافة ميادين النشاط الحيوية من عسكرية وزراعية وتجارية ومالية بالإضافة إلى التغلغل

48- تواجد اليهود في مصر منذ أن دخلوها مع النبي إبراهيم قادمين من أور في جنوب العراق في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وتزايدوا بعد ذلك في أيام النبي يوسف بن يعقوب في القرن الثامن عشر ق.م.

في الجهاز الحكومي خاصة ما كان يتصل منه بالاحتكارات الحكومية وجباية الضرائب وإدارة الأراضي الملكية. ولا شك أن يهود برقة احترفوا المرابأة في المدن التجارية كما فعلوا وما زالوا يفعلون في كل مكان يستقرون فيه. ولعل الذي ساعدهم في ذلك المضمار هو إتقانهم للغة الإغريقية واستعمالهم للزي الإغريقي وللأسماء الإغريقية[49]. محاولين بذلك كما هي عادتهم، ألا يظهروا كعنصر غريب في مجتمعات المدن التي استقروا بها.

ونحن نعلم أن البطالمة في مصر منحوا الجاليات الأجنبية الحرية التامة في مباشرة حياتها الخاصة كما اعترفوا لها بشخصيتها القانونية وبحقها في التملك وفي إدارة أملاكها. ونعرف كذلك أن هذه الحقوق ذاتها كانت تتمتع بها جالية يهود الاسكندرية، وعلى ضوء ذلك فنحن نستطيع القول إن البطالمة عاملوا الجاليات اليهودية في برقة بمثل تلك المعاملة فسمحوا لها بالاستقلال القضائي الخاص بتطبيق الشريعة اليهودية على الأحوال الشخصية كالزواج والميراث، كما سمحوا لها بجباية الضرائب من أفرادها وفقاً لتعاليم التوراة، وبإرسال ما يتجمع منها في خزينة الجالية إلى هيكل أورشيلم (= القدس)، وبإقامة الكنس أوالبيع[50]. ويؤيد ما ذهبنا إليه نقشان اكتشفا في مدينة برنتشي يرجع تاريخهما إلى أوائل العصر الروماني ويتحدثان عن جالية يهودية في المدينة لها أراخنة يصدرون القرارات ويعممونها باسم جاليتهم؛ مما يرجح أن وجود هذه الجالية لم يكن طارئاً وإنما كان استمراراً لوجودها في العصر البطلمي من ناحية، وأن الرومان إنما أبقوا على امتيازات دينية طائفئة كانت لليهود في العصر البطلمي من ناحية، وأن الرومان إنما أبقوا على امتيازات دينية طائفية كانت لليهود في العصر البطلمي من الناحية الأخرى.

أما عن سلوك اليهود في برقة خلال العصر البطلمي فإنا لا نسمع عن

49- لم يعثر على أسماء إغريقية ليهود في برقة من العصر البطلمي ولكن هذه الظاهرة تتجلى في الأسماء الإغريقية التي تسمى بها قورينة وأبولونيا وتوكرة وبرنتشي في العصر الروماني.

50- انظر أيضاً: نصحي، إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1966، ثلاثة أجزاء، ج2، ص 152-168 (سياسة البطالمة الدينية إزاء اليهود).

مشاركتهم في أي من الاضطرابات الكثيرة في ذلك العصر ما يشير إلى أنهم عاشوا عيشة هادئة مطمئنة في ظل أصدقائهم البطالمة. وفي الوقت ذاته ليس لدينا أي دليل على تعرضهم لأي اضطهاد أو على اصطدامهم بأي من العنصرين السكانيين الآخرين: الليبيين والإغريق. وليس لدينا كذلك ما يكشف عن الموقف الحقيقي الذي وقفه يهود برقة من الفتنة التي نشبت بسبب النزاع على عرش البطالمة في مصر في أعقاب مقتل الملك المصري بطليموس السادس فيلومتر سنة 145 ق.م. وزحف أخيه بطليموس الصغير، حاكم برقة، على الاسكندرية حيث تصدت له أُخته وأرملة أخيه كليوبترة الثانية، يؤيدها في ذلك أرستوقراطية الإسكندرية ويهودها ويقود قواتها قائدان يهوديان. وقد استطاع بطليموس الصغير أن يخرج منتصراً في هذه المجابهة فارتقى عرش مصر باسم بطليموس يورجيتس الثاني (145 – 116 ق.م.) وقام بحملة انتقام على أعدائه ومن بينهم اليهود. وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسف أنهم، أي اليهود، قد تعرضوا لمحنة قاسية لم ينقذهم منها، على ما يبدو، إلا عفو الملك عن خصومه بمناسبة زواجه من كليوبترة المذكورة. ولكن ليس لدينا ما يكشف عن موقف يهود برقة في هذه الفترة من الصراع على السلطة بين أعضاء الأسرة البطلمية الحاكمة.

ولقد اكتشف في قورينة مؤخراً نقش غير كامل يحتوي نسخاً لأربع وثائق مختلفة على الأقل وهو مؤرخ بالسنة التاسعة من عهد بطليموس سوتر وزوجته وشريكته في الحكم كليوبترة، وربما كان المقصود بهما سوتر الثاني وكليوبترة سيلينة (Selene) (109-108 ق.م.). ومهما يكن من أمر فإن تاريخ النقش غير متفق عليه وربما كان يرجع إلى فترة أقدم من المذكورة أي إلى عهد بطليموس السادس فيلومتر. أما الوثائق الأربع المشار إليها فهي:

1- مرسوم قوريني يقرر بالتفصيب إقامة احتفال ديني تركيماً للحكام وأُسرهم وأسلافهم، وذلك أعترافاً من قورينة بما أسداه لها أولئك الحكام من جميل.

2- الجزء الأخير من مرسوم صادر عن قورينة، أو قرار من الحكام، بخصوص

جماعة بارزة من مواطني قورينة الذين وجهت لهم تهم خطيرة. وتنص هذه الوثيقة على أن الأوامر والقوانين الملكية سوف تأخذ مجراها بالنسبة لتلك الجماعة شريطة ألا تصادر ممتلكاتهم بل يسمح بانتقالها لورثتهم.

أما الوثيقتان الثالثة والرابعة فهما في حالة جيدة وهما:

3- كتاب من الحكام إلى أهالي قورينة أرفقت به رسائل معنونة للمسؤولين في برقة وأمرٌ من الحكام.

4- مقدمة الوثيقة الثانية السالفة الذكر: وربما كانت هي والرسائل (المفقودة) التي كانت معنونة لحكام مدن برقة من قبل البطالمة وتتعلق بالاراضي التي أعلن رسمياً أنها لا مالك لها. وبناء على ذلك الإعلان جرى ضمها لأملاك التاج؛ أو إنها ظلت معلقة، بمعنى أن مُلاكها كانوا مازالوا متهمين وعلى ذلك فهي عرضة لأن تصادر أو تعلن لا مالك لها[51].

وبيدو أن قطعاً من هاتين الفئتين من الأراضي كانت لا تزال، إلى حد ما، في أيدي مُلاكها السابقين. ويقرر الملوك أن أرضاً مثل هذه لن «توضع تحت الخاتم» أي لن تصادر، ولن يجري اعتقال أصحابها وعبيدهم؟ بموجب إجراء إداري قبل أن تأخذ الإجراءات القانونية مجراها.

ومن الواضح أن الأحوال التي حملت ملوك البطالمة على اتخاذ تلك الإجراءات كانت أحوالاً غير عادية أي إن برقة كانت في حالة من الاضطراب؛ فهنالك كثير من المواطنين البارزين في مدنها قد وجهت إليهم التهم وهم ينتظرون المحاكمة، وهنالك أشخاص آخرون غير مواطني المدن قد خسروا، بسبب خرقهم للقوانين على ما يبدو، ملكية أراضيهم التي أعلنت لا مالك لها (Adespota). وهنالك جماعة أُخرى لما يخسروا ملكية أراضيهم بعد؛ ولكنهم متهمون وقد يخسرونها بعد قليل. ويبدو أن الجماعتين الأخيرتين لم تكونا من المزارعين الوطنيين وإنما على الأرجح من المستوطنين العسكريين الذين عاملهم موظفو الملك تلك المعاملة القاسية.

51- Rosotvtzeff, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World, Three Volumes, Vol. II, Oxford, Clarendon Press, 1st edition 1941, Reprinted 1953, Pp. 915916-.

إن هـذا النقش، بغض النظر عن الفترة التي يرجع إليها تاريخها من القرن الثاني قبل الميلاد، يعكس اضطراب الأحوال في برقة ويتضمن وقوع أعمال الشغب وربما الحرب الأهلية. ولكن معرفتنا بتاريخ برقة في هذا العصر محدودة إلى درجة أنها لا تسمح لنا بأن نربط وثائق هذا النقش بحوادث معينة. وعلى أي حال فإن من الواضح أن الحكام المذكورين في هذه الوثائق قد خرجوا منتصرين من كفاحهم الذي ربما كان حرباً أسرية أو أهلية. ويبدو أنهم راحوا يحاولون إعادة السلام والنظام دون إصدار عفو عام شامل؛ فهم ينوون معاقبة خصومهم لكن دون عنف وإنما عن طريق المحاكم النظامية. ومن المعروف أن كثيراً من أمثال هذا الموقف حدثت في مصر في عهد فيلومتر، يوريجيتس الثاني وسوتر الثاني. ومن المؤكد أن برقة كانت متورطة في مشاكل مصر.

إن هذا النقش القوريني يكشف عن الحالة التعيسة وغير المستقرة التي تحولت إليها برقة الغنية المزدهرة نتيجة للحروب الأهلية ولسوء الإدارة تماماً كما حدث في قبرص ومصر ذاتها؛ فإن الأحوال السيئة التي سادت مصر في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد وخلال القرن الأول قبل الميلاد أدت إلى تدمير اقتصادها وتجميد تقدمها، كما أنها أفقرت الطبقة العاملة فيها وخفضت عائدات الدولة من الموارد الداخلية.

النهضة الثقافية في برقة في عهد البطالمة:

سبق أن أشرنا للنهضة الشاملة لقورينة في عصرها الذهبي. ولابد أن نشير هنا إلى أن النهضات الثقافية تستمر مزدهرة بعد الهبوط السياسي بأجل غير قصير. والنهضة الثقافية في برقة تتجلى في هذا العصر في ظهور أُدباء وعلماء من أبنائها كانوا في الصف الأول مع أقرانهم في العالم الهلينستي. وكان من أشهرهم كليّماخوس (Callimachus) القوريني (310 – 245 ق.م.) وكان أحد تلاميذ فليتاس وقد اختير فيما بعد أميناً لمكتبة الاسكندرية ثم شاعراً لبلاط بطليموس الثاني. ولقد أثبت كليّماخوس أنه أستاذ اللون الشعري الذي اشتهر باسم «أُنشودة الرعاة»فقد كان الشاعر المبرز في هذا اللون في أعين معاصريه، والشاعر الإسكندري الطراز إلى

أقصى حد. ولقد كانت أُنشودة الرعاة الأسلوب الشعري الذي امتازت به الاسكندرية في هذا العصر، وهذه الأنشودة كانت عبارة عن صورة صغيرة كاملة في حد ذاتها؛ وربما اتخذت أشكالاً كثيرة، وكان المقصود منها أحياناً هو مجرد الإلقاء. وكليّماخوس هو الذي جعل شعر المراثي الأداة الشائعة الطراز على الصورة التي قدر لها أن تظل عليها. ولدينا الآن بعض أناشيده وأجزاء من قصيدته المسماة «ضفائر برنيقة Coma Berenices» وأجزاء من ملحمته الصغيرة هيكالي (Hecale) ومن قصيدة حول موت آرسينوي، وفقرات من قصيدة هي أهم أعماله جميعاً وهي قصيدة الأسباب (Aitla) أي أسباب مختلف أنواع العادات والعبادات. ولولا ما خلفه لنا من مقطوعات شعر الحكمة لأوشكنا أن نقول إنه لم يكن شاعراً بل عالماً تصدى لصياغة الشعر. وقد ناقد حديث «بالمبرإ من الخطإ». وكان كليّماخوس من علماء فقه اللغة كما أنه كان الحكم وصاحب القول الفصل في زمانه فيما يتعلق بميادين علمه وأدبه.

ونبغ من أبناء برقة كذلك في القرن الثالث قبل الميلاد الجغرافي العظيم أراتوسثنيس (275 – 200 ق.م.) الذي تقول الرواية المأثورة إنه تلقى العلم على أيدي معلمين أفذاذ هم أرسنون (= زينون) الرواقي وآرسسلوس المتشكك وكليّماخوس الشاعر وليسنياس النحوي. وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره ذاعت شهرته في كثير منت فروع العلم المختلفة مما جعل بطليموس الثالث يعينه أميناً لمكتبة الاسكندرية. ولقد ألف أراتوسثنيس ديوان شعر وكتباً في التاريخ، وحاول في كتابة الكونوغرافيا (Conographia) أن يحدد أوقات الحوادث الكبرى في تاريخ بلاد البحر الأبيض المتوسط. وكتب كذلك رسائل في الرياضيات، واخترع طريقة آلية لإيجاد نسب وسطى متناسبة تناسباً مطرداً بين خطين مستقيمين، وقد قاس ميل مستوى الفلك وحدده بـ (2351) فلم يخطئ إلا بنصف في المائة. لكن أعظم أعماله هو تقدير طول محيط الأرض بـ (24662) ميلاً، وذلك قريب من التقدير الحالي (24847) ميلاً. وقد توصل إلى تلك النتيجة بأن لاحظ في ظهر يوم الانقلاب الصيفي أن أشعة الشمس عند مدينة سيبني (قرب مدينة أسوان) كانت تقع عمودية على

سطح جدار ضيق، وعرف في الوقت ذاته أن ظل مسلة في الاسكندرية – وتبعد عن سيبني إلى الشمال بنحو خمسمائة ميل – يدل على أن أشعة الشمس كانت تقع مائلة عن سمت الرأس بنحو $7\frac{1}{2}^{\circ}$ إذا قيست وقت الزوال على خط الطول الذي يصل بين البلدين، فاستنتج من ذلك أن القوس الذي يبلغ $7\frac{1}{2}^{\circ}$ على محيط الأرض يساوي خمسمائة ميل وأن محيط الأرض بهذه النسبة يساوي $360 \div 7\frac{1}{2} \times 500$ أي 24000 ميل أضاف لها (662) ميلاً فرق حساب. وبعد أن قاس محيط الأرض بدأ بوصفها فجمع في كتابه جيوغرافيكا (Geographica) تقارير جميع علماء المساحة في الإسكندرية والرحالة البريين والبحريين[52].

وأخيراً يجدر بنا أن نشير إلى أن حديثنا كان مركزاً حتى الآن على منجزات العنصر الإغريقي في برقة. أما عدم تعرضنا للعنصر البربري الليبي بمزيد من التفصيل فهو راجع إلى قلة معلوماتنا عنه. ولقد سبق أن نوهنا بالقبائل الليبية في هذا العصر في بداية هذه المقالة وعلينا أن نضيف الآن تلك القبائل ظلت تعيش طراز الحياة الذي عالجناه في عصر هيرودوتس؛ أي إنها بقيت تعيش عيشة البدو الرحل بشكل عام وإن كانت قد بدأت تستقر في أقاليمها في هذا العصر وتتجه للزراعة والتجارة بالإضافة للرعي.

52- ديورانت، ول، قصة الحضارة، ج3 مجلد 2 ، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1962.

ثبت ببعض التواريخ المصرية الهامة

الأسرتان الأولى والثانية		3197 – 2778 ق.م.
عصر الدولة القديمة	حوالي	2778 – 2423 ق.م.
الأسرة الثالثة		2778 – 2723 ق.م.
الأسرة الرابعة		2723 – 2563 ق.م.
الأسرة الخامسة		2563 – 2423 ق.م.
نهاية الدولة القديمة		2423 – 2242 ق.م.
الأسرة السادسة		2423 - ؟
الأسرة السابعة		(وهمية)
الأسرة الثامنة		2242 - ؟

الأسرات الإهناسية

الأسرة التاسعة	2242 – 2150 ق.م.
الأسرة العاشرة	2150 – 2060 ق.م.
عصر الدولة الوسطى	2160؟ - 1580 ق.م.
الأسرة الحادية عشرة	2160؟ - 2000 ق.م.
ملوكها: انتف الأول	2160 – 2150 ق.م.
انتف الثاني	2150 – 2090 ق.م.
انتف الثالث	2090 – 2085 ق.م.
منتوحتب الأول	2085 – 2065 ق.م.
« الثاني	2065 – 2060 ق.م.
« الثالث	2060 – 2010 ق.م.

« الرابع 2010 – 2008 ق.م.

« الخامس 2008 – 2000 ق.م.

الأسرة الثانية عشرة 2000 – 1785 ق.م.

ملوكها: أمن م حات الأول 2000 – 1970 ق.م.

س ن وسرت الأول 1970 – 1936ق.م.

أمن م حاتت الثاني 1938 – 1904 ق.م.

س ن وسرت الثاني 1906 – 1888 ق.م.

س ن وسرت الثالث 1887 – 1850 ق.م.

أمن م حات الثالث 1850 – 1800 ق.م.

أمن م حات الرابع 1800 – 1792 ق.م.

سبك نفرو رع 1792 – 1785 ق.م.

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة 1785 – 1680 ق.م.

الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة (هكسوس)

1730 – 1580 ق.م.

الأسرة السابعة عشرة 1680 ؟ - 1580 ق.م.

عصر الدولة الحديثة 1580 – 10900 ق.م.

الأسرة الثامنة عشرة 1580 – 1320 ق.م.

ملوكها: أحمس 1580 – 1558 ق.م.

أمن حتب الأول 1557 – 1530 ق.م.

تحتمس الأول 1530 – 1520 ق.م.

تحتمس الثاني + حتشبسوت 1520 – 1484 ق.م.

تحتتمس الثالث 1504 – 1450 ق.م.

أمن حتب الثاني 1450 – 1425 ق.م.

تحتمس الرابع 1425 ؟ - 1405 ق.م.

أمن حتب الثالث 1405 – 1370 ق.م.

أمن حتب الرابع (أخناتون) 1370 – 1325 ق.م.

الأسرة التاسعة عشرة 1320 – 1200 ق.م.

ملوكها: رمسيس الأول 1320 – 1318 ق.م.

ستي الأول 1318 – 1298 ق.م.

رمسيس الثاني 1298 – 1232 ق.م.

ستي الثاني ؟- 1200 ق.م.

الأسرة العشرون 1200 – 1085 ق.م.

ملوكها: رمسيس الثالث 1198 – 1166 ق.م.

رمسيس الرابع إلى الحادي عشر 1166 – 1085 ق.م.

المدة المتأخرة 1085 – 323 ق.م.

الأسرة الحادية والعشرون 1085 – 950 ق.م.

« الثانية والعشرون (ليبية) 950 – 730 ق.م.

« الثالثة والعشرون (ليبية) 817؟ - 730 ق.م.

« الرابعة والعشرون (نوبية) 730 – 715 ق.م.

« الخامسة والعشرون 715 – 656 ق.م.

« السادسة والعشرون 663 – 525 ق.م.

« السابعة والعشرون (فارسية) 525 – 404 ق.م.

« الثامنة والعشرون 404 – 398 ق.م.

« التاسعة والعشرون 398 – 378 ق.م.

« الثلاثون 378 – 341 ق.م.

فترة السيادة الفارسية الثانية 341 – 333 ق.م.

استيلاء الإسكندر الكبير على مصر - 332 ق.م.[53]

حكم البطالمة في مصر[54]

1- بطليموس الأول الملقب سوتر الأول (= المنقذ) 305 (حينما أتخذ لقب ملك) – 283 ق.م.

2- بطليموس الثاني فيلادلفوس 283 – 246 ق.م.

3- بطليموس الثالث «يورجيتس الأول» (= الخيِّر)246 – 221 ق.م.

4- بطليموس الرابع فيلوباتر «Philopator» (= المحب لأبيه) 221 – حوالي 205 ق.م.

5- بطليموس الخامس ابيفينس «Epiphanes» (= المتجلي) حوالي 205 – 181 أو 180 ق.م. مات مسموماً

6- بطليموس السادس فيلوميتر «Philometor» (= المحب لأمه) 181 أو 180 – 145 ق.م.

7- بطليموس السابع يورجيتس الثاني الطاغية شارك أخاه ابتداً من 163 - 145 ق.م. وحكم بمفرده من 145 – 116 ق.م.

8- كليوبترة الثالثة (أرملة يورجيتس الثاني)

بطليموس الثامن الشاحب الملقب لاثيروس «Lathyros» سوتر الثاني

بطليموس التاسع «الاسكندر» 116 – 80 ق.م.

نهاية الأسرة الشرعية

53- دريوتون. إيتين. وفامديه. جاك. مصر. ترجمة عباس بيومي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

54- تارن وليم. الحضارة الهلينستية. الطبعة الثالثة. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. 1966. ص 10 – 65.

بطليموس أبيون «Apion» الابن غير الشرعي ليورجيتس الثاني يرث عنه منطقة برقة ويحكمها 116 – 96 ق.م. عندما أوصى بها لروما.

9- بطليموس الحادي عشر (ابن غير شرعي للاثيروس) وقد نصبه أهل الاسكندرية ولقب ديونيسوس الجديد «Neos Dionysos» وكنى بالزمار «أوليتس Auletes» 80 – 51 ق.م.

10- بطليموس الثاني عشر وكليوبترة السابعة (ابنا الزمار) 51 – 31 ق.م.

انتهى حكمهما بانتصار أوغسطس على أنطونيس في معركة أكتيوم وتبعية مصر لروما.

طرابلس في العهد الفينيقي

خلاصة تاريخ الفينيقيين في الشرق والغرب:

الفينيقيون قوم ساميون أصلاً إلى حد أن عدداً غير قليل من المؤرخين العرب يعتبرونهم عرباً. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن شبه جزيرة العرب كانت أشبه بحوض ماء كلما زاد الماء فيه طفح الفائض على جوانبه. وهم يقدرون أن أول موجة سكانية طفحت بها شبه جزيرة العرب كانت حوالي سنة 3500 ق.م. نتيجة لازدياد عدد سكانها وقلة مواردها. وكان اتجاه تلك الموجة البشرية إلى مصر عبر البحر الأحمر. وإلى فينيقية على الساحل اللبناني حيث استقر القادمون على طول الساحل وتغلبوا على جنس البحر الأبيض السامية الأولى هجرات أُخرى صغيرة بعضها سامي وبعضها غير سامي كالأرمن والحثيين فاجتاحت منطقة الهلال الخصيب بأسره. ولكن الموجة السامية الكبرى التي غمرت منطقة الهلال الخصيب وتحكمت في مصيرها طيلة ألف سنة هي هجرة العموريين بين سنة 2300 ق.م. وسنة 2100 ق.م. والمعتقد أن هذه الهجرة غمرت فينيقية وسوريا وفلسطين ووصلت فيما بعد إلى منطقة الجزيرة في ما بين النهرين بالعراق؛ وهي هي التي طبعت بلدان الشرق الأدنى نهائياً بالطابع السامي. وبمضي الزمن انقسم هؤلاء المهاجرون إلى جماعتين متميزتين: الأولى ظلت تُعرف بالعموريين واستقرت في المناطق الداخلية. والثانية صارت تُعرف باسم الكنعانيين. أي سكان المناطق المنخفضة. أو الأقوام الحمر. أي الفينيقيين. واستقرت على طول الساحلين اللبناني والفلسطيني. وحوالي سنة 1194 ق.م. اجتاح الدوريون بلاد اليونان فدفعوا الإيجيين. أي شعوب البحر. إلى الهجرة منها فغزوا آسيا الصغرى وفينيقية وفلسطين وليبيا ومصر. ولكن رمسيس الثالث. ملك مصر. تمكن من هزيمتهم في معركة بلوزيوم (Pelusium) إلا أنه لم يتمكن من إلقائهم في البحر. فتركهم يستقرون في فلسطين التي راحوا ينتشرون منها شمالاً إلى فينيقية. وجرى امتزاج هذه العناصر المختلفة تدريجياً على أرض فينيقية فما إن حانت سنة 1100 ق.م. حتى كان العنصران الكنعاني

السامي وهو الفينيقي. والهندو أوروبي وهو الإيجي قد امتزجا امتزاجاً كاملاً ونتج عنهما جيل جديد يجمع بين صفات العنصرين هو الذي صار يُعرف باسم الفينيقيين الذين كانت دماء رجال البحر الإيجيين تجري حارة في عروقهم فلم يلبثوا حتى فرضوا سيطرتهم المطلقة على الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط طيلة ما يقرب من أربعمائة وخمسين سنة بحيث كانت لا تدخل إليه سفينة غريبة إلا أغرقوها أو أسروها وباعوا ركابها عبيداً. ومع مطلع القرن العاشر قبل الميلاد امتد نفوذ الفينيقيين البحري غرباً حتى شمل الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط فكانت سفنهم تأتي بالسلع الشرقية المنقولة إليهم من أواسط آسيا والهلال الخصيب عن طريق أبناء عمومتهم العموريين. سكان دواخل سوريا. لتبيعها في إسبانيا مقابل المعادن الإسبانية – خاصة الفضة – التي كانت لا غنى عنها. ومنذ حوالي سنة 1110 ق.م. بدأت ذراع الأشوريين الآخذة في القوة تصل إلى فينيقية. فقد استولى تغلاث بلاسر (Tiglath Pileser) الأول في تلك السنة على أرواد وعلى بعض المدن الفينيقية الأخرى على ساحل فينيقية الشمالي. كما ان أشور – ناصر – بعل الثاني (Ashur – Nasirpal II) استولى على عدد من المدن الفينيقية سنة 883 ق.م. وحصل الجزية من صور وصيدا وببلوس وأرواد. وتلاه في الحكم وفي تنفيذ هذه السياسة العدوانية التوسعية خليفته شلمانصّر الثالث (824 – 859) Shalmaneser III) ق.م.) فهاجم الفينيقيين والعموريين على السواء. واستمر الأشوريون بعد ذلك في سياستهم العدوانية الاستبدادية حتى استولوا على جميع المدن الفينيقية باستثناء صور فقد فشلوا في الاستيلاء عليها رغم تكرار حصارهم لها. ونتج عن تلك الأحوال هجرة فريق كبير من أبناء صور إلى الشمال الإفريقي حيث نزلوا بالقرب من تونس وأقاموا مستوطنة جديدة أسموها «القرية الحديثة» (Karat Hadasah)[55] وهي التي عرفت فيما بعد باسم قرطاجنة. والتاريخ التقليدي المتفق عليه لتأسيسها هو سنة 814 ق.م. ومنذ ذلك الحين بدأت قوة قرطاجة تنمو وتزدهر في الوقت الذي

55- Baramki, Dimitri, Phaenicia and the Phaenicians, Khaytas, Beirut, Lebanon, first edition, 1961, pp 6 - 8.

كانــت فيه صور وبقية المدن الفينيقية في الشــرق تضعف وتنحدر مما ألقى علــى عاتق قرطاجة عبء المســئولية في الدفاع عن المصالح والمســتوطنات الفينيقية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوســط. ولم تكن قرطاجة أول مستوطنة يقيمها الفينيقيون على سواحل هذا الحوض فقد سبق لهم أن اجتــازوا أعمدة هرقل (= مضيق جبل طارق) وأسســوا في الجنوب الغربي من شــبه جزيرة إيبيريا (= إســبانيا) مدينة قادس سنة 1110 ق.م. لاجتلاب الفضة. كما إنهم أسســوا مراكز ومحطات تجارية كثيرة على طول معظم ساحل الشمال الإفريقي الواقع على طريقهم التجاري بين صور في فينيقية وقادس في إسبانيا.

وكما هي الحال بالنســبة لتأســيس العديد من المدن فــي العالم القديم فــإن تأســيس قرطاجة ارتبط بأســطورة الأميرة عليِّســة (Elissa) وأخيها بجماليون (Pygmalion) الذي خلف أباه على عرش صور حوالي سنة 830 ق.م. وحكم في بداية الأمر تحت إشــراف أُخته عليِّسة أو «ديدو» التي تزوجت مــن خالها الثري. كبير كهنة الإله ملــكارت. وطمع بجماليون في ثروة خاله فدبر مصرعه ولكن عليِّســة حالت دون استيلاء أخيها على الكنوز التي كان زوجها قد دفنها في معبد ملكارت وذلك بأن أوهمته أنها كانت مســرورة بما فعل وأنها ستنتقل إلى منزله لتعيش معه. ثم غافلته وشحنت الكنوز في سفينةأبحرت بها إلى قبرص ومعها ثمانون رجلاً ممن كان جماليون قد أمرهم بمســاعدتها. ومن قبرص حملــت معها ثمانين عذراء ليكــن زوجات لرجالها وأبحرت إلى الموقع الذي أسست فيه قرطاجة.

ولقــد خلفت قرطاجة أُمها صور[56] في رعاية المصالح الفينيقية وزعامة الفينيقيــين فبــدأت ببســط نفوذا علــى المســتوطنات والمحطــات التجارية الفينيقية ثم راحت توسع نطاق نفوذا فسيطرت حوالي سنة 650 ق.م. على جزيرة يابة. إحدى جزر البليار الثلاث القريبة من إسبانيا. وأحلت محل الإغريق

56- كان نبوخذنصر «Nabukhodonosor». ملك بابل. قد استولى على صور سنة 574 ق.م. كما إن الفرس اســتولوا عليها ســنة 539 ق.م. وأخيراً اجتاحها الاســكندر الكبير سنة 333 ق.م. وهدمها مما أدى إلى هجرة من نجوا منها إلى قرطاجة.

الذين أجلتهم عن جزيرة كورســيكا حلفاءها الأثروريين. ووطّدت أقدامها في جزيرة سردينيا وفي إسبانيا. وحتى تكمل سيطرتها على غرب البحر الأبيض المتوسط وتحتكر التجارة فيه. عقدت أول محالفة صداقة مع القوة الرومانية الناشئة ســنة 509 ق.م. وجددتها سنة 348 ق.م.. وقد نصت تلك المعاهدة المعقــودة بين الرومانيــين وحلفائهم من جهة والقرطاجيــين وحلفائهم من جهة اُخرى على الشروط التالية:

«لا يجــوز للرومان ولا لحلفائهم أن يتجاوزوا فــي إبحارهم الرأس الجميل [رأس ســيدي علي المكي بتونس] إلا لأســباب قاهرة كالعواصف. أو مطاردة الأعــداء. فعند ذلك يكونون مدفوعين غصباً عنهم ورغم أنوفهم. ولا يرخص لهم باشتراء أو اقتناء أي شيء إلا ما كان ضرورياً لترميم سفنهم وتقليفها أو لإقامة شعائرهم الدينية... ويجب عليهم أن يرحلوا بعد خمسة أيام...»[57]

وأنشأت قرطاجة نظاماً سياسياً لها تطور مع الزمن إلا أنه كان إجمالاً نظاماً أوليجركيا يقوم على سلطات ثلاث هي:

1- السلطة العليا وتتمثل في ملكين أو سبطين ينتخبان لعام واحد.

2- السلطة الأرستوقراطية الممثلة في مجلس الشيوخ الذي كان يتألف من ثلاثمائة عضو ينوبون عن الأسر الغنية وكبار التجار والأعيان والمحاربين.

3- الشــعب. ولــم يقوم نفوذه إلا فــي أيام آل برقة. أي فــي فترة الحروب البونيقية.

وجدير بالملاحظة أ المال كان يلعب أهم الأدوار بالنســبة لهذا الدســتور؛ فــكان الأثرياء من التجار وغيرهم يجدون البــاب مفتوحاً أمامهم إلى المراكز الحساســة في جهاز الحكم في المدينة وذلك عن طريق دخولهم في عضوية مجلس الشــيوخ المذكور. وكانت للدين مكانة ممتــازة في نفوس الفينيقيين تنعكس في أســماء الأعلام التي كانــوا يطلقونها على أبنائهم وبناتهم من مثــل معطبعــل (أي عطية بعل) وباركعبــل (أي باركه بعــل) وبنتبعل (أي ابنة بعل) وعريســة بعل (أي خطيبــة بعل) وأمة بعــل (أي خادمة بعل)[58].

57- صفر. أحمد. مدنية المغرب في التاريخ. ج1. الناشر – بوسلامة. تونس. ص 94 و 113.

58- كلمة بعل الفينيقية تعادل كلمة رب العربية التي قد تعني الإله أو الصاحب.

وكانت أشـــهر الآلهة الفينيقية بقرطاجة هـــي الإلهة تانيت بنتبعل وكانت تماثل عشـــتار، إلهة القمر عند فينيقي مدينة صور، شكل إله أقرن، له قرنان كقرني الكبش مما يشـــير إلى صلته بالإله آمون الليبي في ســـيوة. ويأتي بعد ذلـك الإله ملكارت (ملــك – كارت) أي ملك المدينة، والمقصــود بها في هذه التســـمية هي مدينة صور التي ينســـب إليها هذا الإلـــه. وقد كان له هيكل فـــي قرطاجة، كما إن القرطاجيين كانوا يبعثون إلى هيكله في صور القرابين والهدايا الثمينة في كل ســـنة. ثم يأتي بعد ذلك الإله ميلكن أو مولك بعل، وكانـــوا يمثلونه على صورة وثن قبيح الخلقة له رأس ثور فوق جســـم إنســـان. زكان القرطاجيون يمارســـون أشـــد وأقســـى عاداتهم الدينية على مذبح هذا الإلـــه فيقدمـــون أطفالهـــم قرابين لـــه بحرقهم أحيـــاء؛ وغايتهـــم من ذلك تهدئة غضبه وســـخطه ودفع نقمته. ونحـــن نعلم من ديودورس الصقلي أن القرطاجيـــين حين حاصرهم القائد الإغريقـــي أجاثوكليس حرقوا على مذبح هـــذا الإلـــه مائتين مـــن أطفال أُســـرهم النبيلـــة بالإضافة إلـــى ثلاثمائة من خيرة رجالهم تطوعوا بحرق أنفســـهم ليكونوا قربانـــاً لائقاً بقدر هذا الإله. وإلى جانب الآلهة الرئيســـية المذكورة عبـــد الفينيقيون عامة والقرطاجيون خاصة آلهة أُخرى كثيرة ولكنها كانت ثانوية إذا ما قيست بالآلهة الســـالفة الذكر.

أمـــا المجالات الاقتصاديـــة المختلفة فقـــد كان القرطاجيون ســـادة التجارة البحرية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط دون منازع. وعلينا بهذا الخصوص أن نتذكر أنهم، في ســـبيل التجـــارة، داروا حول إفريقيا ووصلوا إلى إنجلترا وإرلندة، وتغلغلوا فـــي الصحراء الإفريقية. ويكفي أن نذكر أن الإغريق واليهود والرومان اعترفوا للفينيقيين في المجالات الاقتصادية المختلفة، وخاصة في مجال التجارة، بالحذق والدهاء، والنشـــاط الـــذي لا يعرف الملل. وعلى هذا النحو فإن قرطاجة ظلت ســـيدة النصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت روما أشدها وأدركت خطر قرطاجة عليها فدخلت معها في ثلاث حـــروب بونيقية انتهت ســـنة 146 ق.م. بتدمير قرطاجـــة وإزالتها من عالم الوجود في أبشع عدوان شنته أوروبا على آسيا وإفريقيا ممثلتين في قرطاجة.

وتجدر الإشـــارة هنا إلى أن الفينيقيين عامة والقرطاجيين خاصة لم يكونوت شـــعباً حربياً علـى نحو ما كان عليه الأشـــوريون وغيرهم من شعوب العالم القديم، وإنما كانوا شـــعباً تجارياً بحرياً في الدرجة الأولى. وهذه الحقيقة توضح عدم إقامة قرطاجة لجيش وطني إذ إن من المعروف أن محاربيها كانوا جلهم، إن لم نقل كلهـــم، من المرتزقة الليبيين وغيرهـــم ولكنها كانت تضع أولئك المرتزقة تحت تصرف قادة بارزين من أبنائها من مثل هنيبال.

الفينيقيون في طرابلس:

لابـــد أن الفينيقيين أثنـــاء رحلاتهم التجارية للمتاجـــرة مع بلدان الحوض الغربـــي من البحر الأبيض المتوســـط قـــد اضطروا في مناســـبات عديدة إلى اللجـــوء لنقاط مختلفة على الســـاحل الليبي احتماء مـــن عاصفة أو طلباً للماء والغذاء أو من أجل الاســـتراحة. ويرجح هذا الرأي علمنا أن الفينيقيين كانوا يفضلون الإبحار قريبين من اليابســـة نظراً لصغر سفنهم ذات المجاديف وخوفاً من التعرض للعواصف بعيدين عن اليابسة. وهم إن لم يكونوا قدموا للســـاحل الطرابلســـي لغايات تجارية متعمدة منذ البداية فإنهم لم يلبثوا أن فتحو أعينهم على أهمية هذا الســـاحل كمنفذ لســـلع الســـودان وغيره من أقطار أفريقيا الداخلية، تلك الســـلع التي كان من بينها الذهب والعقيق والحجارة الكريمة الأخرى والعاج والأبانـــوس والعبيد من الزنوج. هذا بالإضافة لكثرة النعام في منطقة طرابلس نفســـها. وقد كان بيض النعام وريشه من السلع التجارية النادرة التي يشتد الأثرياء في طلبها.

ولقد دلت الحفريات التي أجريت في صبراتة على أن الفينيقيين كانوا قد أقاموا فيها خلال القرن الســـادس قبل الميلاد محطة تجارية (Emporium) يشـــغلونها في المواســـم الملاحية عندما يكون البحر الأبيض المتوسط هادئاً نســـبياً والملاحة مأمونة فيه وذلك ما بين شهري مارس/ آذار ونوفمبر/ تشرين الثاني من كل ســـنة. ومن المحتمل أنهم قاموا بإنشـــاء محطات تجارية أُخرى حوالي ذلك التاريخ نفسه في لبدة الكبرى (Leptis Magna) وفي طرابلس (= أويـــا Oea) وكان أســـمها الفينيقـــي فيعات (Ui>at)، وفي شـــراكس (Charax) (= مدينـــة الســـلطان الحاليـــة)، وفـــي مكومـــادس – يوفرانتا

(Macomades – Euphranta) (= مدينة سرت). وقد سبق أن أشرنا إلى أن قرطاجة التي ربما كانت أقدم محطة فينيقية كبرى على ساحل الشمال الإفريقي، نصبت نفسها حامية للمستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ومنها مستوطنات الشمال الإفريقي، ولذلك فإنها وقفت تدفع عنها التوسع الإغريقي بنجاح وإن كانت فيما بعد قد ذهبت ضحية محاولتها أن تضع حداً للتوسع الروماني. ويختلف قدماء الكتّاب في أي هذه المستوطنات الفينيقية أنشأته صور وأيها أنشأته صيدا، فالشاعر اللاتيني سيليوس الأيطالي (Silius Italicus) يخبرنا أن مدينة صور أنشأت لبدة وصبراتة وأن مهاجرين من صقلية من أصل فينيقي قاموا بإنشاء أويا، بينما يؤكد سالّوست (Sallust) أن لبدة أنشأها مهاجرون من صيدا رحلوا عن مدينتهم الأم نتيجة للاضطرابات التي كانت تسودها. وعلينا بهذا الصدد أن نتذكر أن المؤلفين والكتاب اللاتين كثيراً ما كانوا يستعملون النسبة لصور ولصيدا كمرادف لاسم الفينيقيين. وعلى أي حال، وأياً كانت الجهة التي قدم منها الفينيقيون المؤسسون فإنا نستطيع أن نقول إن هذه المستوطنات أُنشيت في فترة متأخرة نسبياً وبرعاية قرطاجة؛ فيرودوتس يفيدنا ضمنياً أن لبدة لم تكن قد تحولت إلى مستوطنة دائمة مع نهاية القرن السادس قبل الميلاد عندما حاول مهاجرون إغريق من إسبارطة بزعامة دوريوس (Dorieus) ابن ملكها أن ينشؤوا مستوطنة إغريقية عند مصب نهر كنبس سموها باسم ذلك الوادي حوالي سنة 517 ق.م.. فقد تدخلت قرطاجة في الحال ونجحت بالتعاون مع قبيلة المكاي الليبية في إجبارهم على التوقف عند خليج سرت الكبير وعدم تجاوزه إلى الغرب. ومن الواضح أن عدم ذكر هيرودوتس لمدينة لبدة في سياق سرده للحادثة السابقة يدعونا إلى الاعتقاد أن لبدة لم تكن قد أنشئت بعد؛ لأنها لو كانت موجودة لشاركت القرطاجيين وحلفاءهم المكاي في طرد القادمين من المستوطنين الإغريق. ولابد لهيرودوتس في مثل تلك الحالة أن يذكر مثل تلك المشاركة. ويؤيد هذا الرأي بعض الحفريات التي أجريت في لبدة إذ إن أقدم ما وجد في المقبرة الفينيقية تحت حلبة مسرح لبدة هي قطعة فخار كورنثية يعود تاريخها للقرن الخامس قبل الميلاد. وربما كانت أويا قد أُنشئت في فترة متأخرة

عن تاريخ إنشاء لبدة. وحتى صبراتة التي سبق أن أشرنا إلى وجود محطة تجارية على موقعها في القرن السادس قبل الميلاد لم تصبح مستوطنة دائمة إلا بعد وقت متأخر في القرن الخامس قبل الميلاد.

ولا شك أن قرطاجة برهنت بطردها لدوريوس ومن كانوا معه من الإغريق عندما حاولوا إقامة مستوطنة نهر كنبس سنة 517 ق.م. أنها إنما كانت تعلن أو تؤكد سياستها في اعتبار منطقة طرابلس محمية لها فدخلت بسبب ذلك في نزاع مع مدينة قورينة الإغريقية القوية. ونجد إشارة إلى الكيفية التي تمت بها تسوية النزاع على الحدود بين قرطاجة وقورينة في قصة الأخوين فيليني (Philaeni) (أي محبي الشهرة). تقول تلك القصة إن الجانبين الفينيقي القرطاجي والإغريقي القوريني بعد أن أبليا في سلسلة من المعارك غير الحاسمة لفرض سيطرتهما على الأرض الواسعة الممتدة بينهما، والتي لم تكن تتبع لأية سلطة معترف بها، سئما الحرب واتفقا على أن ينطلق من كل من مدينتيهما في وقت معين ممثلون لها سيراً على الأقدام وفي اتجاه المدينة الأخرى، على أن تكون نقطة التقاء الفريقين هي الحد الفاصل بين الطرفين. وأجاد الأخوان فيليني فقطعا ثلثي المسافة بين قرطاجة وقورينة حتى التقيا بفريق قورينة. وحاول الإغريق التنصل من الاتفاق باتهام الأخوين فيليني بأنهما بدءا مسيرتهما قبل الوقت المعين وبأنهما كان يجريان جرياً وليس مشياً، ولكن الأخوين فيليني أعلنا استعدادهما لإعادة التجربة من جديد. وهنا أعلن الفريق القوريني أنّه لن يقر الحدود عند تلك النقطة إلا إذا قبل الأخوان فيليني أن يدفنا حيين حيث كانا يقفان وإلا فإن على قرطاجة أن تسمح لممثلي قورينة بالتقدم إلى المكان الذي ترضى به قورينة حدّاً بين المدينتين مقابل موافقة ممثليها على أن يدفنا حيين في ذلك المكان ليضمنا بذلك إقرار الحدود بين الطرفين. وأمام هذا التحدي أعلن الأخوان فيليني موافقتهما على أن يدفنا حيين حيث كانا يقفان. وقد عرف المكان بعد ذلك باسم آري فيلينورم (Philaenorum Arae) نسبة للنصب التذكارية التي أقامها القرطاجيون فوق قبري البطلين. وقد أقام الإيطاليون أثناء احتلالهم لليبيا القوس الرخامي الحالي عند ذلك الموقع.

وهــذه القصة تبدو وكأنهــا مزيج من الحقيقة والأســطورة؛ فقد ورد في مقالة جغرافية إغريقيــة أن الحدود بين قرطاجة وقورينة عينت في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد بطريقة ســلمية وربما تم ذلك في أعقاب سلســلة من الحروب. وقبول قرطاجة بحل وســط ينطوي على شــيء من المهادنة لقورينة الإغريقيــة يتفق مع سياســة قرطاجة في هذه المرحلة مــن تاريخها عندما كانــت ترمي إلــى التفرغ لفتح صقليــة الإغريقية ولــو أدى تفرغها ذاك إلى مهادنــة الإغريق أنفســهم في أي مكان آخر. أما الأخوان فيليني نفســاهما فهما أســطوريان وحتى اســمهما نفســه فهو إغريقي وليس فينيقياً، وربما كانت الأسطورة كلها من وضع الإغريق.

معاملة قرطاجة لمحمياتها الفينيقيات على الساحل الطرابلسي:

منــذ البداية اتضح لنا أن قرطاجة فرضت نفوذها على منطقة طرابلس والمحطات التجارية الفينيقية (Emporia) التي أُنشئت على طول الساحل الطرابلســي والتــي بلغ عددها العشــر أو نحــو ذلك. ولابد أن هــذه المحطات كانــت بطيئة في نموها وتطورها فليســت هنالك أية إشــارة لها في الكتب الكلاســيكية السابقة للعهد الروماني باســتثناء كتب الجغرافيا اليونانية. ومن ناحية أُخرى فإن الحفريات الحديثة في ثبراتة تدل على أن أول توسع ضخم لهذه المدينة إنما حدث في القرن الثالث قبل الميلاد. ولعل سر هذا الركود يكمن في السياســة التي كانــت قرطاجة تنتهجها تجاه المســتوطنات الفينيقية فــي ليبيا. تلك السياســة التي أعلنتها قرطاجة بوضــوح في المعاهدة التي أبرمتها مع روما سنة 509 ق.م. وجددت سنة 348 ق.م.. وهي سياسة كانت تحظر على الســفن غير الفينيقية المتاجرة مع المراكز الفينيقية في الشمال الإفريقــي وبذلك فقد أصبحت صادرات وواردات تلك المراكز أو المحطات احتكاراً لقرطاجة على حساب مصلحة تلك المراكز الذاتية. وفي نفس الوقت فرضت قرطاجــة على تلك المراكــز ضرائب عاليــة؛ فنحن نعلم مــن ليفي (Livy) أن لبــدة. التــي كانت مركزاً مالياً إدارياً لمنطقة تشــمل أويــا وصبراتة. كانت تدفع لقرطاجــة ضريبة يومية مقدارها «تالنت» واحــد أي ما يعادل (224) جنيهاً اســترلينياً. وهو مبلغ كان يعادل ما يكسبه (2500) عامل في اليوم

الواحد. وبالإضافة للضرائب النقدية كانت المحطات الفينيقية في ليبيا تدفع لقرطاجة ضرائب عينية ورســوماً جمركية على صادراتها ووارداتها. كما كان عليهــا أن تقدم المحاربين والإمدادات لقرطاجة وقــت الحرب. وزيادة على كل ما تقدم كان محظوراً على تلك المســتوطنات أن تحتفظ بأية قوات عسكرية أو بحرية خاصة بها.

ومن الناحية الأخرى تركت قرطاجة تلك المســتوطنات حرة في تتصريف شــؤونها الداخلية بما في ذلك التشــريع والقضاء الذي كان ينحصر في أيدي أقلية من الأثرياء والأرستوقراطيين على غرار النمط المتبع في قرطاجة ذاتها. وكان اقتصاد المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي يعتمد على دعامتين أساسيتين هما:

1- المتاجرة في السلع التي تحملها إليها القوافل من أواسط إفريقيا.

2- الزراعة التي كان الفينيقيون من أبرع المزارعين القدماء فيها.

ولذلــك فإنا نجد هذه المســتوطنات تتوســع في مجــال الزراعة الكثيفة (زراعة الأرض بأكثر من حصول واحد في السنة الواحدة) وفي الزراعة الواحدة بمعنــى زراعــة النبات الواحد فــي المكان الواحد المناســب له. ومــن الواضح أن أنســب شــجرة لمناخ منطقة طرابلس المعرض للجفــاف والرياح اللافحة هي شــجرة الزيتون. ولذلك فإنّا نجد الفينيقين يدخلون زراعة هذه الشــجرة للمنطقة بأســلوب علمي. وقد أدخلوا كذلك أشجار فواكه أُخرى كثيرة من مثل التين والرمان والخوخ واللــوز والكرمة. وفي المجالات الزراعية الأخرى أدخل الفينيقيون للمنطقة أدوات زراعية معدنية وأســاليب أحدث من الأســاليب التقليدية التي كانت سائدة فيها.

وحول هذا الموضوع يقول رســتوفتزف: «لقد كان زيــت الزيتون والفواكه والنبيذ إلى حد ما. هي المنتجات الرئيســية للمدن. فكان ساحل إفريقية في العصور الفينيقية حديقة غناء فســيحة الأرجــاء. وهذه حقيقة لا تدعمها الأدلة الكثيرة المباشــرة فحســب. وإنما أيضاً الأدلة غير المباشرة؛ فنحن نعلم أن واحــدة من أشــهر الرســائل عــن الفلاحة هــي كتاب ماجــو القرطاجني

[القرطاجي] . . . .
. . . . وكان كتاب ماجو يبحث في الزراعة العلمية والرأسمالية، وقد وجه أكثر عنايته لا إلى زراعة الحبوب وإنما إلى غرس الكروم والبساتين، وعلى الأخص زراعة الزيتون. ومن المحتمل جداً أن اليد العاملة التي استخدمها مُلاك الأراضي من الفينيقيين في مزارعهم كانت على العموم من الأرقاء»[59].

ولابد كذلك أن الفينيقيين بدأوا بعض المشروعات الرامية إلى التحكم في مياه الأمطار وتجميعها واستغلالها، وقد استكمل الرومان تلك المشروعات في مرحلة لاحقة. ودليلنا على ذلك هو ما ذكره استرابو (Strabo) عن وجود سد فينيقي على مصب وادي كعام.

أما فيما يتعلق بالفن والصناعة والدين فإن حفريات الآثار لم تصل إلى شيء يذكر بهذا الصدد حتى الآن وإن ككان يؤمل أن تؤدي قريباً إلى الككشف عمّا كانت عليه الحال بالنسبة لهذه الموضوعات في المستوطنات الفينيقية في ليبيا، إذ لابد أن هذه المستوطنات كانت تحذو حذو المدن الفينيقية الأصلية وحذو قرطاجة في فنها وصناعاتها، وفي عبادتها للآلهة الفينيقية المختلفة من مثل ملكارت وعشتار وبعل حامون وثانيث.

مواقع المستوطنات الفينيقية:

لما كان الفينيقيون تجاراً في الدرجة الأولى ومزارعين في الدرجة الثانية فقد كان من المنطق أن يختاروا مواقع مستوطناتهم الساحلية على مصبات الأنهار والأودية لتكون بمثابة مرافيء تمكنهم من البقاء على اتصال دائم مع البحر الذي كانوا لا يستطيعون الحياة بعيدين عنه. أما الأودية فكانت في غير مواسم المطر تصبح طرقاً طبيعية للقوافل القادمة بالسلع التجارية من أواسط إفريقيا، كما إنها كانت في مواسم المطر تؤمن كميات الماء اللازمة للناس والحيوانات والمزروعات. ولهذا فنحن نجد أن الفينيقيين أقاموا لبدة على مصب وادي لبدة في بقعة من أخصب بقاع منطقة طرابلس، وأقاموا أويا

59- رستوفتزف، م. «Rostovtzeff M.»، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 381.

على مصب «وادي المجينين» كما أقاموا صبراتة على رأس الطريق التجاري الهام الذي كان يحمل سلع أواسط إفريقيا إلى صبراتة ماراً بغدامس.

وإذا ما فكرنا في العمران فإنا قد نتساءل في أيامنا هذه عن السر في أن الإغريق والرومان تركوا آثاراً ضخمة في الأماكن التي استوطنوها في ليبيا بينما لم يترك الفينيقيون شيئاً يذكر. والذي يبدو لنا هو أن الفينيقيين، بالرغم من شهرتهم في هندسة البناء وبالرغم ممّا خلفوه من آثار في فينيقية وقرطاجة، كانوا خارج هاتين المنطقتين تجاراً وزراعاً ولم يكونوا عشاق بناء؛ بمعنى أنهم كانوا يكتفون بأبسط البنايات في المستوطنات التي أقاموها في ليبيا ما دامت تفي بأغراضهم، بينما كان الإغريق والرومان يكرسون حياتهم وجهدهم للأماكن التي يستوطنوها؛ لأنهم قد عقدوا النية مقدماً على البقاء فيها إلى الأبد؛ وإذن فلابد لهم من أن يؤمنوا فيها وجود كل المرافق الضرورية من حمامات ومسارح وساحات وطرق ومعابد على غرار ما تعودوا عليه في بلادهم الأم. هذه ناحية، أمّا الناحية الثانية فهي أن الأبنية الفينيقية في ليبيا كانت بسيطة إلى حد جعل اندثارها وتلاشيها أمراً سهلاً. وبالإضافة لذلك الاعتبار فإن علينا أن نتذكر أنّه لم تجر في مواقع المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي حفريات كافية لتقرير مدى ما وصل إليه العمران الفينيقي فيها.

بسبب هذا كله فإن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي تشتهر حالياً في مجال الآثار والسياحة بآثارها الرومانية والبيزنطية أكثر مما تشتهر بأصولها الفينيقية ولذلك فسوف نؤجل الحديث المفصل عن آثار المستوطنات الرئيسية الثلاث (لبدة وأويا وصبراتة) التي سمى الإغريق المنطقة كلها باسمها أي طرابلس (Tripolis) أو منطقة المدن الثلاث إلى ما بعد الحديث عن الرومان في ليبيا.

بعد تدمير قرطاجة:

دمر الرومان قرطاجة سنة 146 ق.م. ولكن المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس لم تصبح تابعة لروما إلا بعد سنة 46 ق.م. فماذا كان

يجري في تلك المستوطنات خلال المائة سنة التي انقضت بين تدمير قرطاجة وتبعية تلك المستوطنات لروما؟ إن مصادرنا لا تمدنا بالشيء الكثير للإجابة على هذا السؤال. والقليل القليل الذي نعرفه يتلخص في أن تلك المستوطنات استمرت تعيش حياتها الخاصة وتدير شؤونها الذاتية كما كانت تفعل في ظل قرطاجة، أي إن كلاً منها ظلت خاضعة لتنظيم حكومي على نحو التنظيم الذي عرفته في عهد قرطاجة والذي يعطي السلطة لأقلية أرستوقراطية في كل مستوطنة. وفي مجال الزراعة ظلت كل منها تقوم بنشاطها المعتاد. والجديد في الصورة هو أن تلك المستوطنات استراحت الآن من عبء الضرائب الثقيلة التي كانت تدفعها لقرطاجة، واستراح أبناؤها من الخدمة العسكرية التي كانت تتطلبها قرطاجة بين الحين والآخر. وفي الوقت ذاته انكسر سور الاحتكار الذي كانت قرطاجة تحيطها به فانفتحت على العالم الخارجي وأصبحت تسير تجارة نشطة خاصة بها مع روما ونوميديا وغيرهما من البلدان المجاورة. ولم يطل الأمر بالدولة النوميدية الناشئة حتى فرضت نفوذها في الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد على إقليمم طرابلس والمستوطنات الفينيقية القائمة عليه، ولكنها تركت لها حرية تصريف شؤونها كالمعتاد مما أدى إلى انتعاش اقتصادي تلحظه في التوسع العمراني الذي سجلته كل من صبراتة ولبدة لأول مرة. واستمرت الحال على ذلك النحو حتى تغلب يوليس قيصر على منافسه بومبي في معركة فرسالس وبدأ بتنظيم الأملاك الرومانية في الشمال الإفريقي ومنها الإقليم الطرابلسي؛ وسنتعرض لذلك عند الحديث عن العصر الروماني.

هذا بالنسبة للمستوطنات الفينيقية، أما القبائل الليبية التي كانت تعيش عيشتها البدوية كالمعتاد؛ فكان بعض الليبيين القريبين من الساحل يحتكون بالفينيقيين ويتأثرون بهم فينقلون عنهم ما يستطيعون نقله في كافة المجالات من زراعية وتجارية وعمرانية وحتى في مجال اللغة والأدب والفنون. أما الليبيون البعيدون فقد ظل تأثرهم بالفينيقيين قليلاً وظلوا أكثر تعلقاً ببداوتهم ووأشد إخلاصاً لها. وتبعاً لذلك فقد ظل محور حياتهم يدور على الزراعة والرعي وتربية المواشي؛ وبالطبع فإنهم كانوا يتبادلون إنتاجهم

مع المستوطنات الفينيقية فيأخذون منها ما يحتاجون إليه من السلع المستوردة من الخارج ويعطونها ما يفيض لديهم من سلع زراعية وحيوانية كالزيتون والجلود.

فزان منذ مقدم الجرامنتيين
حتى بدء العصر الروماني

ليس من اليسير أن يحدد المرء المنطقة التي سكنها الجرامنتيون في دواخل ليبيا ولكن من المعروف أنهم استوطنوا عدداً كبيراً من الواحات التي كانت ولا تزال منتشرة هنا وهناك في إقليم فزان. وتركزت تجمعاتهم بشكل خاص في سلسلة الواحات في وادي الآجال[1]. وانتشرت قراهم شمالاً حتى المنحدرات الشمالية للحمادة الحمراء وهي سلسلة التلال القائمة إلى الجنوب من سهل الجفارة – وقد استقروا في المنطقة من غدامس – وغيرها من الواحات – في الغرب، إلى الكفرة في الشرق. وكانت الصحراء إلى الجنوب من مساكنهم تقوم، بالنسبة لهم، بمثابة الساحل للفينيقيين والقرطاجيين؛ فقد كانوا يقطعونها بعرباتهم ذات الخيول الأربعة ويقيمون الحصون على مصادر المياه التي كانوا يجدونها في أوديتها لحماية طرقهم التجارية، ولتكون بمثابة استراحات لهم ولحيواناتهم. أما كيف كانوا يقيمون تلك الحصون في مناطق رملية تكاد تكون خالية تماماً من مواد البناء الأولية فنحن نعلم أنهم كانن يحملون مواد البناء الضرورية معهم من مساكنهم وينقلونها على عرباتهم إلى مواقع المياه التي يريدون إقامة الحصون عليها[2].

ولقد سبقت الإشارة إلى أننا نفهم من هيرودوتس وبلايني وميلا وغيرهم من الكتّاب الكلاسيكيين أنه كان يسكن منطقة فزان قبل قدوم الجرامنتيين جنسان من الناس: أقزام من الزنوج أسماهم هيرودوتس «ترجلودايت» واكتشفت لهم قبور كثيرة غير عميقة بين تلال حمادة مرزق وقطع من فخارياتهم تشبه فخار عصر ما قبل الأسرات في مصر. ويعتقد أنهم أسلاف الدوّادة الحاليين الذين يعيشون بين كثبان أُباري، ورعاة من الزنوج الطوال الذين

1- يقع وادي الآجال إلى الجنوب من سبها بفزان ويمتد من الشرق إلى الغرب بطول يبلغ حوالي مائتي كيلومتر وعرض يتراوح بين اثنين إلى ثلاثين كيلومتراً.

2- انظر الملحق «ب» وانظر ايضاً: Ayoub, Excavations in Germa, A Stencil pamphlet at the Library of Antiquities, The Museums, Tripoli, Libya, No: 3839, p. 3.

اكتشفت لهم رسوم صخرية في تدرات – أكاكوس إلى الشرق من غات وهؤلاء هم الجنس الإثيوبي[3]. أما من أين جاء الجرامنتيون البيض إلى فزان ومتى وكيف فهي أمورٌ مازالت غامضة وتحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء. والنظرية الدراجة والتي تجيب على تلك الأسئلة هي أن الموجة الدورية التي غمرت بلاد اليونان حوالي سنة 1194 ق. م. أحدثت تدافعاً سكانياً عمت آثاره آسيا الصغرى ومنطقة الشرق الأوسط بما فيها مصر التي تمكنت أن توقف تيار تلك الهجرات. ولعل أقواماً من أولئك المهاجرين القادمين من وراء البحر ومعهم مهاجرون من صقلية وسردينيا وجزر أُخرى من جزر البحر الأبيض المتوسط نزلوا ساحل برقة وخليج سرت، حيث لم تكن هنالك سلطة قوة مركزية تستطيع التصدي لهم، بعد أن صدتهم مصر عن سواحلها. ولم يلبثوا أن امتزجوا بالليبيين ثم اضطروا في ظروف لا نعرفها – وربما كانت لا تعدو قدوم مهاجرين آخرين ضغطوا على الجرامنتيين – إلى التوغل في دواخل ليبيا. وفي هذا الوقت كانت تعيش في واحات فزان وأوديتها الخضراء وحوش وحيوانات برية كثيرة كالغزال والودان، وكان الفزانيون المسالمون يربون مواشيهم ويعيشون عيشة إنسان العصر الحجري الحديث فيستعملون أسلحة بسيطة من الخشب والحجارة لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أسلحة البرونز أو الحديد وكانوا يجهلون الخيل والعربات مما شجع أقوام البحر الجرامنتيين على غزوهم واحتلال ديارهم قادمين من شواطئ برقة وخليج سرت الكبير. وبعد أن استقر الغزاة الجرامنتيون في المنطقة جعلوا من أنفسهم طبقة عسكرية حاكمة واستعبدوا سكان المنطقة الأصليين ليسخروهم في مزارعهم وفي رعاية ماشيتهم وقضاء مصالحهم الأخرى، وكان ذلك حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد دلت الحفريات على أن أول مستوطنة أقامها الجرامنتيون كانت على قمة جبل زنكرا حيث وجدت ثلاثة من جدرانهم السايكولبية (Cyclopic walls) وبقايا أكواخهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة زنككرا تعني «العسل» بلغة الطوارق. فهل كانت التسمية ترجمة من الطوارق لأصل

3- انظر أيضاً: Ayoub, The Excavations of Cornelins Bolbus, 1968 pp 9 - 10.

جرامنتي؟ هذا الجبل يقوم في الحمادة الحمراء ويمتد شمالاً في وادي الآجال وهو عبارة عن قمتين: الجنوبية وهي الأقدم، والشمالية وهي التي استوطنها الجرامنتيون حوالي القرن الثالث قبل الميلاد. فأقاموا عليها بيوتاً صغيرة وكونوا مزارع مدرجة على منحدراتها. وأحاطوها بجدار طويل علمت فيه مصارف للتحكم في توزيع مياه المطر المتجمعة أمامه والإفادة منها في أعمال الري – وكانت بيوتهم تتكون من غرف صغيرة مبنية بآجر الطين أو بالآجر الأحمر. وقد استعملوا روث البقر لطلاء جدرانها ومصاطبها وهي طريقة ما زالت مستعملة في كل من السودان والهند حتى اليوم[4] ولعل هذا المستوى من المساكن يمثل مرحلة متقدمة نسبياً لأن المعروف أن مساكن الجرامنتيين كانت في أول أمرها مساكن بسيطة لا تعدو كونها أكواخاً أو خياماً من جلود الحيوانات. وتأتي مرحلة النهضة الجرامنتية بعد قيام جرما القديمة فقد دلت آثارها على أنها كانت محاطة بسور وخندق وكان في داخلها بيوت كبيرة وحمامات ومعابد. كما كانت بها أسواق يظهر فيها أثر الطراز الروماني، ووجدت بها كذلك أعمدة تنتصب بتيجانها الكورانية والدورية شواهد على التأثير الإغريقي[5]. وفي هذه الفترة صار البيت الجرامنتي يتكون من شقة أو أكثر. وصارت جدرانه ومصاطبه تطلى بملاط من الجير أو الجبس الملون. وكشفت الحفريات كذلك عن أن جرما القديمة كانت تتمتع بامدادات مياه جيدة وبنظام ممتاز للمجاري وبشوارع تظللها الأشجار وبكثير من البساتين التي كانت تحيط بالمدينة وتضفي عليها رداء جميلاً من الخضرة.

ونحن وإن كنا لا نزال نجهل حدود مملكة الجرامنتيين التي لا بد أن تكون قد شملت فزان ومنطقة واسعة حولها إلا أننا بدأنا، بفضل علم الآثار، نتعرف في تاريخ هذه القبيلة القوية؛ فقد كشفت الحفريات عن وجود ما يزيد على أربعين ألف قبر بجوار عاصمتهم جرما، التي كانت عبارة عن مدينة صغيرة

4- Ayoub M. S., Fezzan, a short History, Controllery of Southern Governorates, Tripoli, 1968, pp 4246-.

5- لم توجد في أعمق طبقة كشفتها الحفريات في جرما القديمة حتى الآن أدلة على أبنية أقدم من القرن الميلادي الأول، ومعظم أبنية هذه الطبقة ترجع إلى النصف الأول من القرن الميلادي الثاني، وهي طريقة تدل على أن الجرامنتيين كانوا عند هذا الحد قد تأثروا في مجال العمران بالإغريق والرومان عن طريق احتكاكهم بالنوميديين وبلبدة وأويا وصبراتة.

تتألف من معابد حجرية وحصون ومنازل متباعدة وآبار رومانية حفرت فيها بعد دخول الرومان. وآثار جرما على غرابتها، ليست أغرب من آثار جرامنتية أُخرى هي عبارة عن حوالي مائة ضريح هرمية الشكل لا تزال قائمة في مقبرة الحاسيا المجاورة لجرما.

والجرامنتيون، كمجتمع مستقر، قطعوا شوطاً حضارياً لا بأس به. وتتجلى حضارتهم في العمران الذي أشرنا إليه وفي نظام الحكم والتجارة والزراعة – وكما كان المجتمع الجرامنتي يتكون من الفئات التالية: الملك وحاشيته ثم الأمراء والحكام، وتأتي بعد ذلك طبقة العمال فطبقة السكان القدماء الإفريقيين الذين كان بينهم بعض البربر – ولم يتأثر النظام الجرامنتي القائم على الأرستوقراطية العسكرية بالنظام الملكي اليوناني ولا بالنظام الروماني ولا بالقرطاجي بل ظل مخلصاً للطبيعة البدوية التي اكتسبها في ليبيا؛ فقد دلت آثار الأمراء والحكام المحليين على أنهم كانوا غير قابلين للتأثر بالنظم المجاورة ولذلك فقد كانوا مثلاً لا يترفعون عن ترؤس الغرف التجارية ولا عن العمل في التجارة. وهم لذلك كانوا أثرياء أقوياء إلى حد أنه كان باستطاعتهم أن يقاوموا حتى ملوكهم. وكان الملك الجرامنتي رأس الدولة وقائد الجيش والكاهن الأعظم للبلاد فكان بذلك مصدر للسلطة؛ فالأمراء والحكام المحليون إنما كانوا يتلقون سلطتهم منه مقابل تقديمهم الضرائب والمحاربين له. واكن الجيش الجرامنتي يتكون من المشاة وإن الفرسان الذين يمتطون العربات أو صهوات الخيول. ويبدو أنه كان في جيشهم ذاك فرقة كومادو تستخدم في الدرجة الأولى لقطع الطرق ولردم الآبار. اما الطبقة العاملة فكانت تتكون من العمال اليدويين وصغار التجار. وقد قال استرابو عن هذه الطبقة في وقت لاحق: «إن حياتهم لم تكن حياة فخفخة ورفاهية ولكنهم لم يكونوا فقراء فقراً مدقعاً وإنما كانوا طبقة متوسطة عادية». ويذكر استرابوا وغيره من الكتّاب الكلاسكيين أن الجرامنتي كان يتزوج عدة زوجات مما ينقض ما ذهب إليه بعض الكتاب المعاصرين من أن الجرامنتيين هم أبناء الطوارق؛ لأننا نعرف أن الطوارق يجلون النساء إلى حد أنهم يقيمون نظام الإرث على جهة عصبية الأم وينتسبون للأم بدلاً من الأب

ولا يتزوج الرجل منهم أكثر من زوجة واحدة.

وفي مجال الزراعة والرعي يتحدث هيرودوتس[6] عن ديار الجرامنتيين في الصورة التالية: «على مسيرة عشرة أيام أُخرى من أوجلة نحو الغرب نأتي إلى تلة ملح أخرى بها نبع كغيرها من هذه التلال، وفيها أشجار نخل من النوع الذي يثمر كما هي الحال في الواحات الأخرى. وهنا يقطن الجرامنتيون، تلك القبيلة العديدة، التي يفرش أبناؤها طبقة من التراب فوق الملح، ثم يزرعون بذورهم فيها[7]. وعندهم كذلك البقر التي تسير إلى الوراء أثناء رعيها، والسبب في هذه العادة الغريبة هو أن قرون هذا النوع من البقر تنمو منحنية إلى الأمام ونحو الأرض، مما يمنع البقر من التحرك إلى الأمام، كما هي العادة، لأنها لو فعلت لاشتبكت قرونها بالأرض. وفيما عدا ذلك فإن بقر الجرامنتيين تشبه غيرها من البقر، وإن كانت تمتاز عنها بسمك جلدها وصلابته. ويقوم الجرامنتيون بأسر رجال الكهوف الإثيوبيين أي الترجلودايت (Trooglodytes) بمطاردتهم في عربات تجر الواحدة منها أربعة خيول، لأن هؤلاء الترجلودايت سريعو العدو إلى حد يفوق التصور. فهم أسرع من أي شعب نعرفه، وهم يأكلون الأفاعي والسحالي والزواحف الأخرى، ويتكلمون لغة ليس لها شبيه في العالم فهي كزعيق الخفافيش».

ولعل التجارة كانت أهم مرفق اقتصادي للجرامنتيين فقد دفعتهم إلى أن يصبحوا مهرة في الملاحة الصحراوية إن جاز التعبير، فعرفوا كيف يهتدون فيها بالنجوم، كما إنهم أقاموا الحصون والمحارس التي لا تزال آثارها ماثلة حتى اليوم على طول طرق قوافل الصحراء. والطرق التجارية عبر الصحراء الليبية ليست اكتشافاً من إنجاز الجرامنتيين أنفسهم فقد كانت فيها طرق ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ، كما إن نصوص العصر التاريخي في مصر القديمة تذكر أن أحد تجار أسوان استخدم ليبيين ليقطع الصحراء بقافلة مكونة من ثلاثمائة حمار، وقد استخدمت الحمير في القافلة نظراً لشدة

6- انظر الملحق «ب» ص 782.

7- لقد ذكر بلايني أن الجرامنتيين استعملوا روث البقر كسماد زراعي في القرن الأول قبل الميلاد حينما كانت لا تزال هنالك بعض بعض الأنهار الموسمية التي كانت مياهها تستغل في ري الأراضي الزراعية.

قدرة الحمار على تحمل الضما ولأن الجمل لم يكن قد عرف بعد. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن ماجو (Mago) القرطاجي استخدم الحمير في أيام الجرامنتيين لعبور الصحراء. ولا شك أن الجرامنتيين في بداية عهدهم بالصحراء استخدموا الثور للنقل والسفر، ولذلك فقد ظهرت صورته مسرجاً في بعض رسوماتهم على الصخور. ولكن غلب على الجرامنتيين استخدام الحصان أكثر من غيره فاستخدموه لجر العربات إلى جانب ركوبه مباشرة؛ وسنجد أنهم ظلوا يعتمدون على الخيل حتى في القرن الميلادي الرابع عندما شاع استخدام الجمل الذي أبوا أن يستخدموه رغم ما يتميز به عن الحصان في الأسفار الصحراوية.

وبالنظر لموقع جرما القديمة ومهارة الجرامنتيين في الملاحة الصحراوية وقدرتهم – بسبب قوتهم وكثرة عددهم – على حماية القوافل التي يهمهم أمرها فقد أصبحت جرما، عاصمتهم، مركزاً تلتقي فيه القوافل الذاهبة لأواسط إفريقيا من الساحل الليبي والقوافل القادمة من أواسط إفريقيا باتجاه ذلك الساحل ولقد كانت الطريق العابرة بجرما من سرت إلى السودان أقصر تلك الطرق وبالتالي أكثرها استعمالاً. وكان قصرها ناجماً عن تعمق النتوء البحري في القارة عند سرت حتى خط عرض 30° شمالاً. أما بالنسبة للعبور من جرما إلى تشاد فإن الذي كان يجعل السفر ميسوراً هو وجود سلسلة من الواحات تنتشر من الشمال إلى الجنوب وعلى مسافات قصيرة ما بين فزان وتشاد. وأشهر طرق القوافل التي كانت تربط الساحل الليبي بجرما هي:

1- طريق صبراتة – غدامس – إدري – صحراء أُوباري – جرما.

2- طريق أويا – غريان – إلى يرغن عبر الجبال – كثبان أباري – جرما، وقد اشتهرت باسم طريق أكلة اللوتس.

3- طريق لبدة – غرزة – شوارف – براك – سبها – جرما.

4- طريق سرت – ودان – هون – عبر جبال السوداء إلى سبها – جرما.

وفي الوقت ذاته كانت أشهر الطرق التي تربط جرما بتشاد والسودان

هي:

1- جرما – زويلة – كفرة – إنيدي – إلى مورو في السودان.

2- جرما – قطرون – فايا – تشاد.

3- جرما – قصر مارا – شرابا – إلى كوار على نهر نيجر.

4- جرما – إمسك – نهر النيجر[8].

بالإضافة إلى تلك الطرق كان هنالك طريق آخر يربط جرما بالنيل شرقا وبشاطئ المحيط الأطلسي غرباً مبتدئاً من ممفيس أو الأقصر عبر الواحات الصرية إلى سيوة فأوجلة فجرما ومنها إلى متخندوش. ثم إلى أكاكاوس ومنها يسير عبر الهجار فأواسط الصحراء إلى الساحل الموريتاني على المحيط الأطلسي.

وكانت القوافل الجرامنتية تحمل إلى أواسط إفريقيا بعض الإنتاج الجرامنتي مثل الملح ثم بضائع ما وراء البحر كالخزفيات والزجاجيات والملابس والأدوات الحديدية والحجارة الكريمة والحلي. وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نتذكر أن الجرامنتيين كانوا يحتكرون تجارة الملح المتوافرة بكثرة في بلادهم والذي كانوا يستبدلونه بالذهب مع بلدان أواسط إفريقيا. أما السلع التي كانوا يعودون بها من أواسط إفريقيا كانت الحيوانات المفترسة، وجلود الحيوانات، والعاج، والأخشاب وخاصة الأبانوس، والعبيد، والذهب الذي كانوا يأتون به من النوبة أو النيجر، والفضة من منطقة تمبكتو. وكان من إنتاجهم الياقوت أو حجر الأمازون الذي عُرف باسم الحجر القرطاجي لأن قرطاجة هي التي كانت تصدره إلى العالم الخارجي بعد استيراده من الجرامنتيين. وجدير بالذكر في هذا الصدد أن الفراعنة كانوا يسمون ذلك الحجر بالحجر التمحي من الواوات، نسبة لقبيلة التمحو الليبية التي كانت تنتشر أو تتحرك في المنطقة بين شرق فزان وغرب النيل. ولقد أثبتت الحفريات صحة التسمية الفرعونية فقد اكتشف مونود (Monod) الفرنسي محجراً للأمازون على بعد قليل إلى الشرق من الواوات: واو الناموس، واو الكبير. وبالإضافة إلى تلك السلع تاجر

8- Ayoub, M.S. Fezzan, a Short History, Controllery of Southern Governorates, Tripoli, 1986, pp 77 – 88.

الجرامنتيون ايضاً في الخيل والحمير والمواشي.

وبحكم هذه التجارة وأهميتها للاقتصاد الجرامنتي نشأت بين الجرامنتيين والإغريق وبينهم وبين القرطاجيين علاقات ودية سلمية فساعدتهم على الإثراء. وقد زاد في أهمية جرما أن القبائل الليبية التي كانت تنظر إلى نوميديا كمثال يحتذى صارت بعد سقوط نوميديا سنة 40 م. تتطلع إلى جرما باعتبارها النموذج المثالي الجديد الذي صارت تلك القبائل تحذو حذوه.

وفي مجال الصناعة دلت الآثار على أنه كانت تقوم في جرما صناعات محلية محدودة من مثل صناعة الحلي الذهبية والفضية، وصناعة الأغواش والأساور والأقراط من حجر الأمازون الذي أسماه الرومان فيما بعد (Carbuncle) أي العقيق. وقد كان هذا الحجر في ذلك الوقت يعتبر كريماً كالجواهر في أيامنا هذه. ولا شك أنه كانت لدى الجرامنتيين صناعات أولية أُخرى مما يتعلق بالحاجات الضرورية كالمأكل والملبس والمسكن وبعض الأسلحة وما شابه ذلك.

وإذا ألقينا نظرة على فن الرسم عند الجرامنتيين في هذه المرحلة فإنا سنلاحظ أن الرسوم الجرامنتية الأولى كانت بدائية للغاية إذا ما قورنت برسوم الرعاة الذين احتل الجرامنتيون ديارهم وسخروهم في خدمتهم. ولعل خير ممثل لهذه المرحلة من الفن الجرامنتي هو تلك النقوش الصخرية التي وجدت في زجرا (Zigza) بشمال فزان، وبجبل غنيمة في جنوبها وفي جبل زنككرا في منطقة جرما. ويبرز بين النقوش المختلفة رسم عربة وخيلها، وقد مثل الجسم فيه بزاويتين قائمتين بينما مثلت الأيدي والسيقان بخطوط مستقيمة ومثل الرأس بنقطة. وسنلاحظ أن هذا الفن الجرامنتي لم يلبث أن ترقى فيما بعد ووصل حداً معقولاً من التقدم. والمعتقد أن الجرامنتيين لم يكونوا نحاتيين إذ لم يكتشف بين آثار جرما حتى الآن سوى تمثال نصفي من الحجر الرملي لرجل يلبس رداءاً.

ونحن وإن كنا لا نعرف الكثير عن حياة الجرامنتيين الدينية إلا أننا نعرف أنهم عبدوا الإلهة تانيت (Tanit) الليبية، التي كانوا يرون فيها سيدة

للصحراء، وحبيبة للقمر، ومرشدة للقوافل، وسراً للينابيع المتدفقة. وقد حافظت هذه الإلهة على ليبيتها لدى الجرامنتيين بالرغم من أن القرطاجيين عبدوها ورأوا فيها نظيراً لإلهتهم عشتار الفينيقية فزوجوها لإلههم بعل حامون. ولا شك في إن الجرامنتيين عبدوا كذلك الإله زيوس آمون الليبي الذي كان مقره في واحة سيوة بالإضافة إلى قوى مظاهر الطبيعة المتعددة، كما إنهم أخذوا عن الليبيين تقديس الأسلاف والنوم على قبورهم من أجل الاستخارة واستطلاع المستقبل. ولو كنا نعرف على وجه التحقيق أين كان الجرامنتيون يقيمون فيما وراء البحر قبل قدومهم إلى ليبيا لاستطعنا أن نحدد الآلهة التي لابد وأنهم نقلوها معهم إلى فزان عند غزوهم لها واستقرارهم فيها. وإذا التفتنا إلى قبورهم وطريقتهم في الدفن وجدنا أن أقدم نوع اكتشف من قبورهم هو مجموعة من القبور المستديرة ذات اللحود الصغيرة وغير العميقة؛ وكانوا يدفنون الميت فيها على وضع يشبه وضع الجنين في الرحم. ولم توجد في تلك القبور سوى فخاريات قليلة وبعض أدوات الزينة المصنوعة من الحجارة والعظام.